

العمارة القديمة في سوريا جبل أريحا

تأليف
هوارد كروسي باتلر

ترجمة وتدقيق
عائشة محمد علي موسى



العمارة القديمة في سوريا

الحضارة العربيّة والإسلاميّة

Arabic and Islamic Civilization

VOLUME 4-5

The titles published in this series are listed at brill.com/hdr

العمارة القديمة في سوريا

جبل أريحا

الفصل الثاني

القسم ب

الجزء 3

تأليف

هوارد كروسي باتلر

ترجمة وتدقيق

عائشة محمد علي موسى



دار
بريل

الناشر

دار بريل للنشر في ليدن المحروسة و بوسطن

2025

Cover illustration: The village inn of Serdjilla, Syria. Photograph by courtesy of Mr. Bernard Gagnon. “*This monument is today known to the natives as the café.”

صورة الغلاف: النزل في بلدة سرجيلا في سوريا، ويعزى الفضل في هذه الصورة للسيد برنارد غاغنون. “*ويُعرف هذا المعلم اليوم بين السكان المحليين باسم المقهى.”

Typeface for the Latin, Greek, and Cyrillic scripts: “Brill”. See and download: brill.com/brill-typeface.

ISBN 978-90-04-72984-1 (hardback)

ISBN 978-90-04-72986-5 (e-book)

DOI 10.1163/9789004729865

Copyright 2025 by Koninklijke Brill bv, Plantijnstraat 2, 2321 JC Leiden, The Netherlands.

Koninklijke Brill bv incorporates the imprints Brill, Brill Nijhoff, Brill Schöningh, Brill Fink, Brill mentis, Brill Wageningen Academic, Vandenhoeck & Ruprecht, Böhlau and V&R unipress.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, translated, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior written permission from the publisher. Requests for re-use and/or translations must be addressed to Koninklijke Brill bv via brill.com or copyright.com.

For more information: info@brill.com

This book is printed on acid-free paper and produced in a sustainable manner.

إلى خير سند وناصح ومعين
أبي المربي الفاضل
رحلت جسداً وتركت في قلوبنا لوعةً وألماً

∴

فهرس المحتويات

ط اختصارات الدوريات وشرح المساقط والواجهات والمقاطع
م تنويه للقارئ

جبل أريحا

	المقدمة	3	
	كفرومة	15	44
	الجسر	15	
19	النصب التذكارى العمودى		
	سرجيلا	19	45
	الكنيسة	21	
	الحمام	29	
	”المقهى“	36	
	العمارة السكنية	38	
	المنزل (1)	40	
	المنزل (2)	40	
43	المنزلان (4 و5)		
	المنزل (7)	43	
	المنزل (9)	44	
46	المنزلان (10 و11)		
	المنزل (8)	48	
54	العمارة الجنائزية		
	دللوزة	55	46
	الكنيسة	55	
56	العمارة السكنية		
	كوكبة	63	47
	البرج	65	

66	الداانا (الجنوبية)	48
69	قصر البنات	
75	الرويجة	49
77	كنيسة بيزوس	
77	المخطط	
78	البنية الفوقية	
86	الزخارف	
89	تاريخ الكنيسة وسماتها العامة	
91	كشاف المصطلحات والأسماء	

اختصارات الدوريات وشرح المساقط والواجهات والمقاطع

اختصارات الدوريات والمنشورات الواردة بشكل متكرر

A.A.E.S. *Publications of an American Archaeological Expedition to Syria in 1899-1900*, I, II, III, IV.

منشورات البعثة الأثرية الأمريكية إلى سوريا بين 1899-1900، الفصل الأول والثاني والثالث والرابع.
A.J.A. *American Journal of Archaeology*.

المجلة الأمريكية للعلوم الأثرية.

C.I.G. *Corpus Inscriptionum Graecarum*.

مدونة النقوش اليونانية.

C.I.L. *Corpus Inscriptionum Latinarum*.

مدونة النقوش اللاتينية.

C.I.S. *Corpus Inscriptionum Semiticarum*.

مدونة النقوش السامية.

H. *Hermes*.

هيرميز.

J.A. *Journal Asiatique*.

المجلة الآسيوية.

J.K.D.A.I. *Jahrbuch des Kaiserlich Deutschen Archaeologischen Instituts*.

حولية المعهد الإمبراطوري الألماني للآثار.

J.K.P.K. *Jahrbuch der Koniglich Preussischen Kunstsammlungen*.

حولية المجموعات الفنية الملكية البروسية.

K.A. Strzygowski; *Klein-Asien, ein Neuland der Kunstgeschichte*.

سترزيغوفسكي، آسيا الصغرى، منطقة جديدة في تاريخ الفن.

M.N.D.P.-V. *Mittheilungen und Nachrichten des Deutschen Palastina-Vereins*.

إعلانات وأخبار الجمعية الألمانية الفلسطينية.

M.S.M. Dussaud and Macler; *Mission dans les regions desertiques de la Syrie moyenne*.

دوسود وماكلير، البعثة إلى المناطق الصحراوية وسط سوريا.

P.A. Brünnow; *Provincia Arabia*.

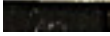



















برونو، المقاطعة العربية.

P.M. Guy le Strange; *Palestine under the Moslems*.

- ي
اختصارات الدوريات وشرح المساقط والواجهات والمقاطع
غاي لوسترانج، فلسطين في ظل حكم المسلمين.
P.R.G.S. *Proceedings of the Royal Geographical Society.*
أنشطة الجمعية الجغرافية الملكية.
Q.S. *Quarterly Statement of the Palestine Exploration Fund.*
البيان ربع السنوي لصندوق استكشاف فلسطين.
R.A. *Revue Archeologique.*
المجلة الأثرية.
R.A.O. Clermont-Ganneau; *Recueil d'Archeologie Orientale.*
كليرمونت غانو، مجموعة الآثار الشرقية.
R.B. *Revue Biblique.*
منشورات الكتاب المقدس.
S.C. Marquis de Vogüé; *La Syrie Centrale, Architecture Civile et Religieuse.*
ماركيز دي فوجيه، سوريا الوسطى، العمارة المدنية والدينية.
S.E.P. Conder; *Survey of Eastern Palestine.*
كوندر، دراسة فلسطين الشرقية.
V.A.S. Dussaud; *Voyage Archeologique au Safa.*
دوسود، رحلة أثرية إلى الصفا.
Z.G.E. *Zeitschrift der Gesellschaft für Erdkunde zu Berlin.*
مجلة جمعية الجغرافيا في برلين.
Z.D.M.G. *Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft.*
مجلة الجمعية الشرقية الألمانية.
Z.D.P.-V. *Zeitschrift des Deutschen Palastina-Vereins.*
مجلة الجمعية الألمانية الفلسطينية.





شرح المساقط الأفقية

المقياس المتبع: 1م = 0.0025م ما لم يوضح المخطط خلاف ذلك.

جدران قائمة بارتفاع 2م أو أكثر.	
جدران منهارة أو أساسات.	
مواد الجدران المنهارة ما تزال في موقعها الأصلي.	
الأساسات فقط في موقعها، أو قمة جدار قليل الارتفاع.	
جدران تخزينية.	
عمود قائم بارتفاع 2م أو أكثر.	
عمود قائم بارتفاع أقل من 2م.	
عمود تخزيني.	
عمودان وعارضة في موقعهم الأصلي.	
عمودان وقوس في موقعهم الأصلي.	
قاعدتا العمودين في موقعيهما الأصليين، والقوس منهار.	
قوس في موقعه الأصلي.	
قوس منهار.	
قوس تخزيني.	
فتحة في أعلى الجدار القائم.	
فتحة في أعلى الجدار المنهار.	
ترصيف.	
قبو أسطواني.	
قبو متقاطع.	
خزان ماء.	

شرح الواجهات والمقاطع

المقياس المتبع: $1\text{م} = 0.005\text{م}$ ما لم توضح الرسومات خلاف ذلك.

تخيني.	
بازلت.	
حجر جيري.	
آجر.	

مقياس التفاصيل: $1\text{م} = 5\text{سم}$ ما لم يستبدل بمقياس آخر في الرسومات.
ملاحظة: لم يتم تنفيذ هذه الأسس المذكورة أعلاه بدقة متناهية، لكن تم التقيد بها في الغالبية العظمى من الرسومات. وأي خروج عن هذه الأسس تم توضيحه خلال النص.

تنويه للقارئ

كل ما ورد من تصويب أو تعليق أو إضافة من المترجمة فقد وضع في الحواشي بعد رمز النجمة (*).

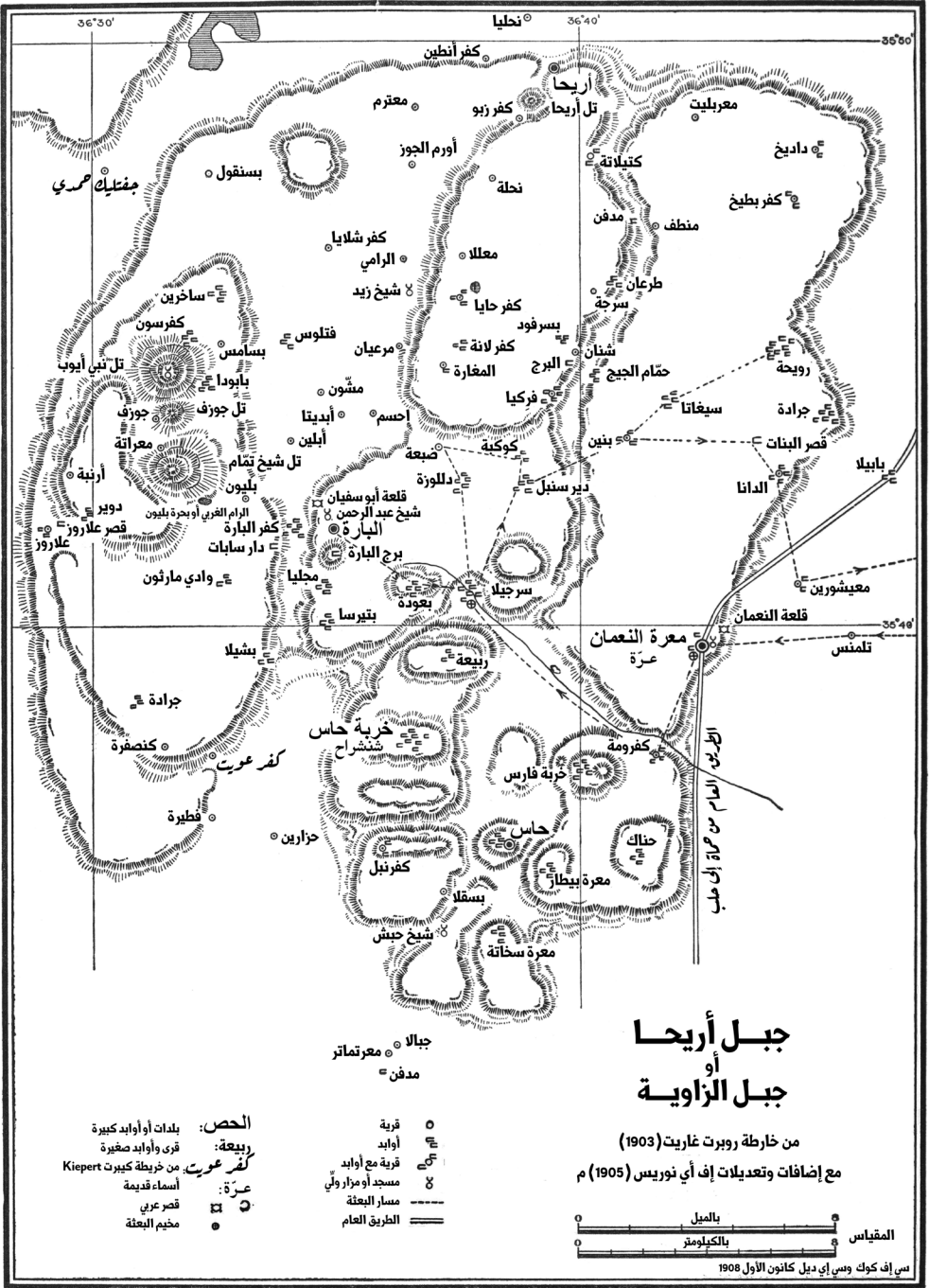
وفيما يتعلق بقائمة المصادر والمراجع فقد تم نقلها بلغتها الأصلية مع ترجمتها إلى اللغة العربية، في حين تم الاكتفاء بذكر اسم المرجع باللغة العربية عند وروده في متن الكتاب وفي الحواشي.

أما أسماء الأعلام الأجنبي فقد ذُكرت باللغة العربية متبوعاً بالاسم كما هو باللغة الأجنبية، عند ورودها لأول مرة في ثنايا هذا الكتاب. وفي حال تكرار ذكر الاسم نفسه لأكثر من مرة، فقد تم الاكتفاء بذكر الاسم في اللغة العربية.

هذا ما لزم التنويه عنه.

والله وليُّ التوفيق

المترجمة: عائشة موسى



جبل أريحا

∴

المقدمة¹

يستعرض هذا الكتاب المنطقة الجبلية الممتدة مباشرة إلى الغرب من المنطقة التي قننا بوصفها في الجزء السابق من هذا الفصل من منشوراتنا هذه (الفصل الثاني، القسم ب، الجزء 2)؛ لكن اختيارنا لهذه المنطقة لم يكن لغرض دراستها دراسة تفصيلية وشاملة؛ إذ سبقنا إليها إم دي فوجيه M. de Vogüé والذي جاب في جميع رحابها واستكشف أدق تفاصيلها، ولعلّ المجموعة الأكبر من رسوماته التوضيحية الأبرز عن روائع الفنون المعمارية كانت من وحي أوابدها الخالدة. كما قامت البعثة الأمريكية التي توجهت في جولة استكشافية إلى سوريا بين عامي 1899-1900 بزيارة هذه المنطقة أيضاً، وعملت حينئذ على رسم خرائط دقيقة لها، والتقاط الكثير من الصور التوضيحية لمبانيها الأثرية، ونسخ مساقطها الأفقية مرفقة مع القياسات، وما تزال هذه الصور والمساقط معروضة في منشورات تلك البعثة. وبالتالي، فإن الغرض الحقيقي وراء زيارة بعثة برينستون لجبل أريحا يمكن في انتقاء معلّم من معلمه الأثرية لتتخذ كعينة نموذجية للمواقع الأثرية المهجورة في المنطقة، وإعداد مخطط للمدينة، وتقديم رسومات مفصلة لجميع مبانيها التي تحظى بأهمية خاصة؛ فضلاً عن نشر الصور والمخططات والرسومات التفصيلية للمباني المهمة في موقعين أو ثلاثة من المواقع التي لم تكن ضمن خط رحلة إم دي فوجيه ولا البعثة الاستكشافية الأمريكية إلى المنطقة، وأيضاً للمباني التي كانت قد استقطبت جلّ اهتمام إم دي فوجيه أو البعثة الأمريكية لما لها من أهمية فريدة، ولكنها لم ترق ضمن منشوراتهما لسبب من الأسباب. وتجدر الإشارة هنا إلى أن جبل أريحا شريطٌ جبلي أرضه شبه صحراوية وذات كلفة كلسية يمتد بين نهر العاصي من جهة، والطريق العام الواصل بين حلب شمالاً مروراً بمدينة حماة إلى دمشق جنوباً من جهة أخرى. وفي التخوم الجنوبية من هذه المنطقة تقع مدينة أفاميا الأثرية بالقرب من قلعة المضيق، أما في تخومها الشمالية فيمتد سهل يمكن أن نطلق عليه اسم سهل إدلب، ويعمل على فصل هذه المجموعة الجبلية بينها عن المجموعة الجبلية الثانية التي تشكل جبل الأعلى وجبل باريشا، ويعد ثاني هذين الجبلين محور الدراسة المفصلة التي سيتم تناولها في الجزء اللاحق لهذا الجزء. ويُطلق على جبل أريحا أحياناً اسم جبل الزاوية، كما يطلق عليه أيضاً اسم جبل البارة لكن هذا الاسم يعد نادراً نسبياً.

1 *أتقدم بجزيل الشكر والعرفان للأستاذة أسماء استانبولي لمجهودها المبذولة في تدقيق وتنقيح هذا الكتاب في اللغة العربية.

وأثناء بحثنا عن الموقع الأمثل كأمموزج للمدن الجبلية الصغيرة المهجورة في جبل أريحا، وقع اختيارنا على آثار سرجيلا، رغم أنها ليست من المواقع الأثرية الأكبر في المنطقة، على غرار البارة والرويحجة، ولا من المواقع الأصغر فيها، مثل كفرنبل أو جرادة؛ مع العلم أن هاتين المدينتين من المدن الصغيرة التي تحتضن كنيسة إلى جانب المنازل السكنية، وليستا ديرين معزولين. فسرجيلا الآن موقع أثري مهجور متوسط الحجم؛ وفي الواقع، لم تكن أيضاً ذات شأن عظيم في المنطقة في العصور الغابرة. ولعلَّ جَلَّ ما تباهى به من فنونها المعمارية كنيستها الوحيدة، وهي بحدِّ ذاتها كنيسة صغيرة نوعاً ما؛ إلا أنَّ حَمَامها العام يتميز بأهمية كبيرة تزيد من قيمتها المعمارية، لا سيما أنَّ المدن التي تم العثور فيها على مبانٍ تم التأكد من أنها حَمَامات لا تزيد عن مدينتين أو ثلاث مدن في المنطقة برمتها - سواءً أكانت مدينة كبيرة أم صغيرة - كما أنَّ منازلها السكنية تحتضن بيوتاً من مختلف الفئات، بما يعرض بشكلٍ لا لبس فيه الفرق بين بيوت الطبقة الفقيرة من سكانها وقصور الطبقة الثرية، رغم أنَّ منازلها هذه لا ترقى لمستوى المنازل الأكبر حجماً أو الأكثر تألقاً في المنطقة؛ وأخيراً فإن مقابرها أيضاً تمتاز بتنوعها وجمالها المذهلين.

ومن المواقع الأخرى - والتي سنعرض واحداً أو أكثر من مبانيها في صفحات منشوراتنا هذه - كفرومة القرية الصغيرة الآهلة بالسكان والواقعة على تخوم المنطقة التي سندرسها في هذا الجزء بالقرب من معرة النعمان، حيث تم العثور على مدفن تذكاري عمودي الشكل وجسر قديم جدير بالتوثيق والنشر؛ ودلوزة حيث استرعى انتباهنا بقايا لكنيسة أثرية ولمنزل يعد واحداً من أجمل المنازل في وسط سوريا؛ وكوكبة الموقع المكتشف حديثاً مع منزله وبرجه المثيرين للاهتمام؛ وقصر البنات الواقع على مقربة من الدانا الجنوبية، حيث وجدنا مبنى ذا مخطط وبنية فريدين ولم يعمل أحد على نشرهما حتى الآن. وإضافة إلى هذه المعالم الأثرية التي استقينها من بعض المواقع غير المعروفة تماماً في المنطقة، أو تلك المعروفة فيها إلى حد ما، سأعمل على نشر مدفن تم اكتشافه بالقرب من المدفن الهرمي الشهير في الدانا، وسأعيد نشر تفاصيل جديدة عن الكنيسة الكبيرة في الرويحجة، لا سيما أننا حصلنا الآن على رسومات توضيحية وقياسات لتفاصيل لم يتوصل إليها إم دي فوجيه عندما أصدر أول منشور له عن هذه الكنيسة. وهكذا، يمكن اعتبار هذا الجزء من منشوراتنا الحالية كحلقة تنوسع فيه عن أعمال إم دي فوجيه في تلك المنطقة. بل إنَّ عظمة ذلك العمل الرائد وفائدته القصوى سبب كافٍ لنشر هذا الجزء، إن كان هناك فعلاً أي داعٍ للتوضيح.

إن لحظة الانتقال من المنطقة ذات الكثرة البازلتية لكراتين وضواحيها باتجاه الغرب نحو منطقة جبل أريحا، والتي تعرف بأرضها الكلسية الصخرية، لا تعد لحظة عابرة، فسحر مشهد المنحوتات

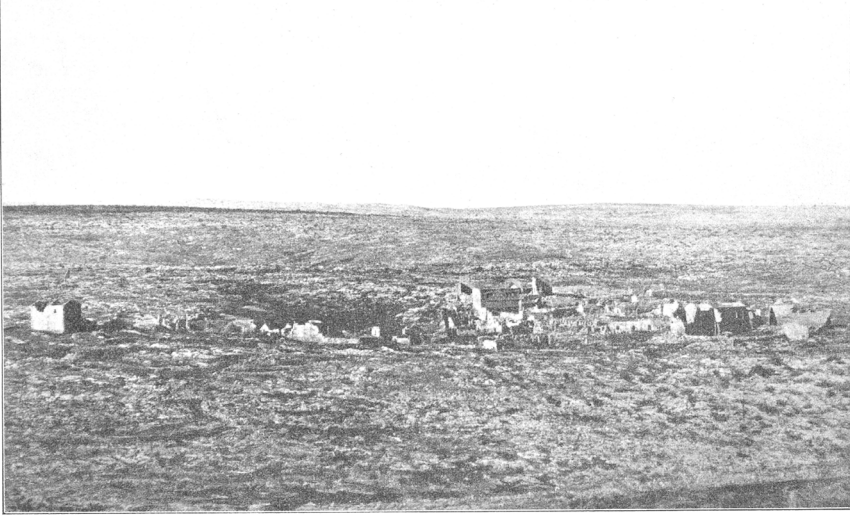
الجيرية في عمائر هذه المنطقة سيخلف بالتأكيد الأثر العظيم. ولعلّ الزمن ترك بصماته الإضافية ليزيد هذه الأوابد روعةً وألقاً لم تحظ به حتى في أوج عهدها عندما كانت مبانيها ما تزال جديدة، لأن الفرق بدا هائلاً بعد مقارنة أنقاض المباني في المنطقة البازلتية إلى الشرق من هنا، والتي كانت تبدو عادية وجامدة وغير لافتة للانتباه، مع الأوابد المتلاثلة في الجبال ذات الكتلّة الكلسية التي تبدو فاتنة إلى أقصى حد تأسر فيه ألباب كل من يطلّ عتباتها. فعند زيارة أنقاض المنطقة البازلتية، لا بد للزائر من البحث بين الأكوام المبعثرة من الحجارة السوداء القاسية والمتكسرة للتعرف على حدود المباني وأماكن الجدران وكسر التفاصيل الزخرفية المنحوتة، في حين حافظت أغلب المباني في منطقة الجبال الكلسية على شكلها بصورة مذهلة. وقد اصطبغت مجارتها الجيرية هذه، والتي كانت في الأصل ذات لون أبيض قشدي كاشف، بألوان فاتحة جذابة تميل إلى اللون الأصفر والبني والرمادي. ومن جوف بقاياها الصخرية هنالك جدران شاهقة وأعمدة رشيقة وأقواس أنيقة وبوابات نحتت بأدق النقوش وأجملها ما تزال تنتصب بقوة وثبات (الشكل 123) لتعرض زخارفها الغنية في قوالب بديعة الصنع، وأشرطة مزدانة بالأوراق التقليدية، وأقراص ذات تصاميم معقدة، وهو عمل تطلب إنجازهُ ألف إزميل وإزميل. ومع ذلك، ولكي نكون منصفين أكثر، فإن عمائر الحزام البازلي في المنطقة الشرقية كانت تتمتع على ما يبدو بسحر خلاب يضاهي سحر العمائر ذات الحجارة الكلسية في هذه التلال الغربية عندما كانت في أوج عهدها وترتدي حلتها الجديدة، وعندما كانت جدرانها ذات الحجارة البازلتية الخشنة مكسوة بطبقة من الطلاء الجصي الناعم، وأقواسها وبواباتها المنحوتة بدقة وإتقان ما تزال شاهجة في مكانها الأصلي، وكل تفاصيلها مطلية بألوان زاهية.

لقد انطلقنا في جولتنا هذه إلى جبل أريحا من معرّات، مروراً بمعرة النعمان حيث قمنا بزيارة خاناتها ومثدنتها الباسقة ومعالمها الأثرية الأخرى التي تستعرض تاريخها الإسلامي العريق الذي يرقى إلى العصور الوسطى، ولكن من جديد، وكما هو الحال في الزيارات السابقة التي قمت بها إلى هذا المكان، انتابني استغراب شديد حول ندرة الأوابد الأثرية التي ترجع إلى ما قبل العصور الوسطى فيها. إذ لا بد للمرء أن يلحظ أثناء زيارة مدينتي حمص وحماة عراقية المواقع الأثرية في كلّ حنية وكلّ منعطفٍ منهما؛ حيث تظهر أجزاءً من جدران قديمة وكسرٍ من تفاصيل معمارية ترقى إلى الحقبين الرومانية والمسيحية في كلّ مبنى من مبانيهما واحداً تلو الآخر، حتى في الأرصفة ولا سيما في المقابر. لكنّ المشهد بدا مختلفاً في معرة النعمان، فلم نشاهد فيها سوى عدد قليل نسبياً من الكسر الباقية من العمائر القديمة، حتى هذا العدد القليل منها يبدو أنه قد جلب على الأغلب من البلدات المهجورة المتفرقة حولها وليس من بلدة قديمة كانت قائمة في هذا الموقع

نفسه. وعلى كلِّ حال من الأحوال، إذا ما افترضنا وجود مدينة كانت قائمة بالفعل في موقع معرة النعمان قبل المدينة الحالية، وأنها كانت تنسب إلى إحدى الفترتين الرومانية أو المسيحية، فلا بد أنها كانت مدينة ثانوية ولم تحظ بشأن عظيم. ولهذا السبب يبدو لي أن الاسم "عرّة" - الاسم القديم لمعرة النعمان بحسب العديد من الخرائط - حريّ أن يطلق على "معرة"، الموقع الأثري الكبير الواقع إلى الشرق من هنا، والأقرب إلى الخط المباشر الواصل بين خلّكيس² و *Chaicis* و *Epiphanea* وهو الاسم القديم لمدينة حماة الحالية.

ومن الجدير بالذكر أنه من بين المواقع الأثرية القديمة التي قننا زيارتها في جبل أريحا والبالغ عددها حوالي ثلاثين موقعاً أو أكثر، يعد الكثير منها نموذجاً لبلدات أثرية لم نجد ما يضاهاها بشكلٍ كامل بين مجموعات البلدات الأثرية الأخرى في شمال سوريا أو جنوبها، ولا حتى في أي جزء من أجزاء العالم القديم برمته. وتحتضن غالبية هذه المواقع مجموعات من فيلات أنيقة منفصلة عن بعضها البعض ولا تطل مباشرة على الشارع. ولعلّ الوصف الأدق لهذه البلدات - إن صحّ القول - يتلخص بأنها كانت بلدات خالية من الشوارع أو الأزقة، ومن الأسواق أو المتاجر، فيها بضعة منازل من فئة المنازل الصغيرة، أحيائها ليست مزدحمة ولا مكتظة، ومجردة من قطاعات التجارة والصناعة. فقد كانت ببساطة مخصصة لأغراض سكنية فقط، وفي كلِّ منها كنيسة أو كنيسةتان، وربما حمامٌ عام، ولكن بدون أية مبانٍ عامة أخرى، وفيها مدافن مزدانة بزخارف مفرطة تؤطرها عند مشارفها. وعلى رأس قائمة هذه البلدات تأتي سرجيلا. وبالتالي، تختلف هذه البلدات، من حيث النقاط المذكورة أعلاه، اختلافاً كبيراً عن البلدات الأثرية التي تحتشد بكثافة عمرانية في الكثير من المجموعات الجبلية المترامية إلى الشمال مباشرة من هنا، بما في ذلك جبل باريشا وجبل سمعان، (انظر إلى الجزأين الخامس والسادس من هذا القسم)، وأيضاً عن البلدات الأثرية في حوران. فقد اتسمت معظم البلدات التي بنيت على الجبال الشمالية بعمارتها المتراسة، وكان لبعضها أسوار وصلت الجدران الخلفية للمنازل الموجودة على أطراف البلدة مع بعضها البعض وتم تدعيمها لتصبح الأسوار الحامية للبلدة. وكان في هذه البلدات شوارع وأزقة، ومتاجر موزعة على شكل صفوف طويلة، وأحياء راقية احتضنت البيوت السكنية الأوسع مساحةً والأكثر نفاهةً، وحارات ضيقة اكتظت فيها البيوت المتواضعة التي كانت تؤوي الطبقات الفقيرة. بل إن بعض المدن كانت، في الواقع، مخصصة للتجارة في معظم أحيائها. أما في مدن جنوب سوريا، فكانت البيوت على الأغلب أكثر التصاقاً واكتظاظاً من بيوت البلدات التي أشرت إليها للتو في الجبال الشمالية، وتداخل في أحيائها عادة مبانٍ من جميع الفئات. إلا أن ذلك لم يمنع من وجود القليل من البلدات التي كانت مكرّسة عملياً للفيلات فقط، وقد اجتمعت

2 * وتدعى أيضاً قنّسرين أو العيس.



الشكل 123 التلال الصحراوية حول سرجيلا

فيها فيلات نفمة وكبيرة لكنّ عددها نادراً ما كان يتجاوز ست أو سبع فيلات، بُنيت بشكل متباعد عن بعضها البعض، وكانت تتوزع حول بعض المدن الكبيرة، مثل بصرى أو أم الجّمال. وعند إجراء مقارنة بين الفنون المعمارية في مدن جبل أريحا هذه وفنون عمارة المدن العادية الأخرى، نجد أن المنازل في هذه المدن تتميز بمساقط أفقية تغطي مساحة أكبر، وفيها غرف أكثر عدداً وأكبر حجماً، باحاتها أكثر اتساعاً، ومداخلها أشدّ فخامة. ولم تختلف مخططات هذه القصور الكبيرة وأنظمة بنائها عن الأنظمة المتبعة في المنازل الصغيرة، ولم تكن تفاصيل توزيع غرفها ولا تصاميمها أكثر تعقيداً أيضاً، وإنما سارت على النهج المعهود في فنون العمارة السكنية في كلّ من شمال سوريا، وفي المنطقة ذات الكلفة البازلتية إلى الشرق، وكذلك في حوران، وفي كافة أصقاع سوريا - إن صحّ التعبير - والذي تمثل بصفّ طويل من الغرف المقنطرة تمتد على جانب واحد أو أكثر من الفناء، ولكنّ الفرق الوحيد هو أن الغرف هنا أكبر حجماً، وبالتالي فإن الأقواس الداخلية أكثر ارتفاعاً مما يولّد انطباعاً باتساع ورحابة المساحات الداخلية. كما لعبت الأعمدة، أكثر من غيرها، دوراً هاماً في إسدال حلّة من الهيبة والوقار على هذه الدور السكنية، إذ ترتفع أروقتها المعمّدة الشاخحة على علو طابقين وتتوضع على جانب واحد أو أكثر من باحة الدار. وقد شاع استخدام الدعامات المربعة في العماثر السكنية العادية في شمال سوريا، وكان يعلوها أحياناً تيجان مزدانة بالقوالب وأحياناً أخرى تأتي بدونها، وفي بعض الأحيان كانت تضاف طرزٌ خاصة

لأعمدة الأروقة في الطابق الثاني أو الثالث على سبيل البذخ والإفراط في الزخارف؛ أما في جنوب سوريا، فلم يكن هناك وجود للأروقة المعمدة على الإطلاق، وبدت واجهات المنازل بسيطة وحالية تماماً من أية أشكال زخرفية، كما هو موضح في (الشكلين 96 و100) في الجزء الثاني من القسم (أ).

في الواقع، لا يوجد للظروف الحياتية والمكانة الاجتماعية لسكان سرجيلا أو دلوزة أو الرويحة أو أي من هذه البلدات السكنية ذات الفيلات الفاخرة ما يماثلها في تاريخ الحضارة القديمة؛ أو على الأصح القول أنه لا يوجد أي مكان آخر تميز بنيته المعمارية بوضع يشبه الفن العمراني العريق في بلدات جبل أريحا هذه. إذ لم تكن هذه الفيلات شبيهة بالمزارع الريفية الفسيحة التي تناثرت في كل بقعة من بقاع الريف الروماني، أو التي رصّعت شواطئ خليج نابولي، وشكّلت المنازل الريفية الفاخرة للعائلات الأرستقراطية في المدينة الإمبراطورية، وكانت كل مزرعة منها تشكل قرية في حد ذاتها؛ كما لم تكن هناك أية قواسم مشتركة بينها وبين قلاع النبلاء التي كانت تزين الريف الأوروبي خلال العصور الوسطى وكانت تنتشر بشكل لا يعد ولا يحصى؛ وأعتقد أن أية محاولة للبحث عن بيئات سكنية مشابهة لهذه البلدات ستذهب هباء منثوراً مهما طال مدتها واتسع نطاقها. فكيف يمكن للناس العيش في الريف في فيلات صغيرة بدون أية وسائل دفاعية أخرى غير أبواب منازلهم السكنية؟ ألا يرمز ذلك إلى شدة المحافظة على النظام واستتباب الأمن والأمان في سوريا بين القرنين الرابع والسابع للميلاد؟ ومن هم يا ترى أولئك الذين كانوا يقطنون في هذه البلدات السكنية المخصصة للفيلات - كما يتساءل السائل؟ ولعل السؤال الأسهل إجابة هو: "من هي الفئات التي لا ينتمي إليها هؤلاء؟" مقارنة مع سؤالنا: "من هي الفئات التي ينتمون إليها؟" فهم لم يكونوا من أصحاب الثروة الفاحشة والسطوة الكبيرة من أهل انلدم والحشم والعبيد، على غرار أصحاب الفيلات في الريف الروماني؛ كما لم يكونوا من كبار الإقطاعيين ذوي النفوذ ممن تحفهم أفواج من الرقيق والجند، مثل سكان القلاع الأوروبية إبان العصور الوسطى، ومع ذلك فقد كانوا فئة عظيمة الشأن من أصحاب الدخل فوق المتوسط، وكانت أعدادهم كبيرة في بقعة جغرافية محدودة تفوق بكثير أعداد فرسان روما وبارونات العصور الوسطى. وبذلك نستنتج أن أصحاب هذه الفيلات كانوا مواطنين من طبقة متوسطة ميسورة الحال؛ إذ لم تكن مواردهم المادية تكفيهم لبناء منازل فخمة ومدافن أنيقة كمساكن تؤويهم في حاضرهم ومستقبلهم فحسب، وإنما لبناء صروح مرافق عامة، مثل الحمام الذي بناه جوليانوس ودومنا في سرجيلا، وربما لبناء كنائس وأديرة على غرار تلك التي أقيمت في مدن أخرى. وليس هناك أدنى شك في أن جوليانوس ودومنا هذين كانا من سكان سرجيلا،

ولكن من المؤسف حقاً أنهما لم يتركا نقشاً يرشدنا إلى الفيلا التي قضيا فيها حياتهما معاً ويخُذ عليها اسميهما. ومع ذلك لم يكونا إلا مجرد فردين لا يختلفان عن الطبقة السكانية الكبيرة في مدينتهم سرجيلا، لأنه لم يكن بين منازل هذه المدينة منزلٌ واحدٌ يتميز دون غيره بجمال فريد وأخاذ يساعدا على اصطفائه كمكان محتمل لإقامة هذين المُحسِنين السخيين اللذين تبرعا بأموالهما الخاصة لبناء الحمام؛ ففي الحقيقة كانت أغلب الفيلات في سرجيلا تتمتع بحجم كبير وجمال منقطع النظير على حدٍ سواء. وبالفعل لا توجد، في هذه المنطقة برمتها، آثار تشير إلى وجود طبقة اجتماعية تفوق هذه الطبقة المتوسطة الميسورة الحال وتسمو عليها. فعلى مسافة ليست بقريبة إلى الشرق من هنا تقع أنقاض قصر ابن وردان، ويعد هذا المعلم الوحيد من نوعه الذي يوحي بوجود قادة أو حُكَّام كانوا يقطنون فيه؛ أما ما خلا هذا القصر وحيثما توجهنا في هذه الأصقاع فسنجد أوابد لبيوت فاخرة كانت تملكها فئة من المواطنين الذين لم يكن لديهم المال لإنفاقه على تشييد هذه الروائع العمرانية فحسب، وإنما كانوا يتمتعون بالذوق الفني الرفيع للإبداع في تصميمها وزخرفتها على أكمل وجه. إلا أنه من الصعب تخمين المصادر التي كان يكسب هؤلاء المواطنون النبلاء عن طريقها رزقهم وما يفيض عن قوت يومهم بما يكفيهم - على سبيل المثال - لبناء منازل فاخرة لأنفسهم وحمّامات عامة لأهل مدينتهم، أو لتشييد كنيسة أو دير عندما يدفعهم وازع ديني لذلك. فهم ليسوا بالتأكيد من مَلَكَ الأراضي الكبيرة، إذ كانت هذه البلدات متقاربة من بعضها البعض بما لا يسمح سوى لمزارع صغيرة أن تمتد بينها. ولا أعتقد أنهم كانوا من مرّي القطعان والمواشي بأعداد هائلة، لأنه عندما استقرت البلاد ووطّدت أركانها، لم تكن المروج والأراضي كافية لرعي الأغنام والمواشي بأعداد كبيرة بما يدر عليهم الربح الوفير؛ كما ليس من الطبيعي لأراضي الرعي الكبيرة أن تكون مكتظة بالسكان لا في الماضي ولا في الحاضر ولا حتى في المستقبل. ومن المستحيل أيضاً أن يكون هؤلاء القوم من أهل التجارة أو ممن انصرفوا إلى البيع والشراء إلى حد كبير. كما أنني أستبعد أن يكون سكان هذه الفيلات من مواطني المدن الكبرى، مثل أنطاكية وأفاميا، ممن لديهم الهوس ببناء بيوت ريفية بالقرب من بعضها البعض في المناطق الجبلية، تماماً كما يعكف أهل الطبقات المتوسطة الميسورة الحال اليوم على بناء فيلاتهم الفاخرة على شكل مجتمعات وسط المناظر الطبيعية في أعالي الجبال أو على شواطئ البحار. فهذه الفيلات الريفية كانت متعة حقيقية لأعيان ونبلاء روما، لكنها بالكاد تنسجم مع حياة أفراد الطبقة الوسطى في مدينة مثل أفاميا.

هذا وإن الصناعات القديمة الوحيدة التي ما تزال آثارها باقية حتى الآن في شمال سوريا تتمثل في معاصر النبيذ والزيتون بكافة الأحجام الكبيرة والصغيرة، وأعدادها لا تزال تحصى بالمئات

داخل هذه المدن الأثرية المهجورة وما حولها. وقد تم وصف الكثير من هذه المعاصر في منشورات البعثة الأثرية الأمريكية إلى سوريا³، ويشير أحد⁴ النقوش الواردة في هذه المنشورات، والذي عُثر عليه في واحدة من أكبر هذه المعاصر، إلى أنه كان هناك أيضاً مصنع للزيوت في حاس، وهي بلدة لا تختلف عن سرجيلا في منزلتها ونمط بنائها. بل إن سرجيلا نفسها تزخر بالمعاصر من جميع الأحجام، كبيرة كانت أم صغيرة. وتزين كل بقعة أرض حافظت على تربتها حتى الآن من هذه التلال الفسيحة بأشجار الزيتون المعمرة (الشكل 124)، بينما نجد على المنحدرات السفلية لجبل أريحا، في بلدات مثل بلدة الدانا، على سبيل المثال، كروماً كبيرة تغص بأشجار الزيتون التي تكسو أراضيها الرحبة. كما نشاهد في سرجيلا، وفي العديد من المواقع الأخرى، أعمدة رشيقة مؤلفة من قطعة حجرية واحدة تنتصب شاقولياً ضمن صفوف طويلة، وكانت تنتشر في كلٍّ من الحقول المستوية، وعلى المنحدرات الوعرة، وكذلك على طول شوارع المدن (انظر مخطط مدينة سرجيلا). وغالباً ما كانت تحيط بصفوف الأعمدة المنتصبة هذه أسوار بدائية ذات بنية بسيطة، وتتخلل كل سورٍ منها بوابة تتكون من ثلاثة أعمدة من قطعة حجرية واحدة. لقد كان إم دي فوجيه محقّقاً بلا شك عندما عمل على ترميم هذه الأعمدة الحجرية المنتصبة في الصور المرفقة في منشوراته بإضافة عرائش الكرمة أو عوارض خشبية أو دعائم بسيطة امتدت من عمود إلى آخر لدعم عناقيد العنب؛ فكانت هذه الحقول المسورة بالتأكيد كروماً للعنب. وهكذا نجد أن انتشار هذه الأعداد الكبيرة من المعاصر المدمّرة ومزارع الكروم، ووجود أشجار الزيتون والكرمة في كل بقعة تراب من الأرض ما تزال صالحة للزراعة، دليل قاطع على توافر مصدرين اثنين للثروة - إن لم يكن أكثر - يتمثل الأول في زيت الزيتون والثاني في النبيذ، وهما سلعتان يسهل تسويقهما عن بعد؛ حيث كانت المنحدرات الوعرة لجبل أريحا، عندما كانت غنية بتربتها، أرضاً مثالية لمثل هذه الصناعات وغيرها. وإذا كان سكان جبل أريحا بالفعل مزارعين لمحصولي الزيتون والكرمة، فسأترك المجال للقارئ أن يتخيل مدى الثراء الذي كانوا قد حققوه خلال القرون الستة الأولى للميلاد. كما أنّ توافر صناعة أساسية واحدة يعدُّ بحد ذاته كافٍ لفتح الآفاق أمام المئات من الصناعات والحرف الأصغر الأخرى المطلوبة لتلبية احتياجات المجتمع المتحضر. وبالفعل فقد وجدنا بلدات خصّصت أغلبها للتجارة؛ إذ اقتصرَت أنقاضها على بقايا لحال تجارية وورش لعمال الحياكة وتطهير النسيج والحدادة. وتروي لنا بعض النقوش المتناثرة في هذه البلدات أنّ أحد مواطنيها كان معمارياً أو مقاولاً، وآخر كان تاجراً يبيع كافة أنواع السلع والبضائع؛ ولكن السر وراء الوضع الاجتماعي الحقيقي لسكان هذه البلدات القديمة المنتشرة في الجبال

3 منشورات البعثة الأثرية الأمريكية إلى سوريا، الفصل الثاني، ص. 268.

4 المرجع السابق نفسه، الفصل الثالث، النقش رقم 152.

السورية، والتي هجرها أهلها منذ آلاف السنين، ما يزال دفيناً بين ركام العمارات القديمة وحروف النقوش المنحوتة عليها، وإن كشف النقاب عنها مرهونٌ بعمليات التنقيب.

إن جبل أريحا ليس بالجبل الشاهق ولا بشديد الوعورة، على غرار المجموعات الجبلية الباسقة إلى الشمال منه؛ ومع ذلك، فإن موقعه المنعزل يضيف عليه علواً أكبر من علوه الحقيقي بكثير. فن الشرق، من منطقة معرّاتة، تبدو منحدراته كجدار رمادي باسق يحجب خط الأفق الغربي البعيد، وتبدو أطرافه الشمالية والجنوبية وكأنها تنبثق بالمنحدرات شديدة من جوف السهول المستوية حولها، بينما يمتد على تحومه الغربية وادي العاصي. لكنه يحتضن مساحات مستوية واسعة تنتشر بين ثناياه تحتفظ بتربتها الخصبية، وما يزال أصحابها يزرعون فيها أشجار الزيتون وعرائش الكرمة، ويخزنون فيها المحاصيل المتناثرة من القمح والشعير. ومن أبرز بلداته التي تشغل رقعة جغرافية كبيرة وكانت ذات شأن عظيم أريحا في الشمال، والبارة في الوسط، وحاس في الجنوب، وهناك الدانا أيضاً - القرية الرابضة عند سفوحه الشرقية على مقربة من الطريق العام. وكلّ بلدة من هذه البلدات تتبع إما على أنقاض بلدة أثرية قديمة أو بالقرب منها. أما البلدات السكنية الأخرى فكانت صغيرة للغاية، وتتكون بشكل أساسي من مجموعات سكنية صغيرة استحلّت هذه المناطق الأثرية وأقامت بين حناياها، وبالتالي لا يمكن أن تُصنّف بين بقية القرى في المنطقة. وبعد إجراء مسح عام لآثار المنطقة، نجد أن البارة الأكبر مساحة بين البلدات الأثرية العريقة هنا. ففيها حيّ مكتظّ تراصت مبانيه مع بعضها البعض على غرار المدن الحاشدة (الشكل 125)، وربما كان هذا الحيّ بمثابة المركز التجاري في المدينة، وإلى جانبه حيّ سكنيّ يحتضن بيوتاً سكنية كبيرةً ومنفصلةً وفيلات أنيقة ومتباعدة عن بعضها البعض؛ وفيها أيضاً كنيسة كبيرة وأخرى صغيرة وحمام عام وبعض صروح المدافن⁵ الأثرية المزدانة بأجمل القوالب والزخارف، تصنّف بشكل لا يترك أي مجال للشك بين الصروح الأروع في المنطقة برمتها (الشكل 124). وفي مطلع الخلافة الإسلامية تم اختيار البارة بسبب موقعها الاستراتيجي كمقرٍ لقلعة دفاعية. أما القرية الحالية الرابضة في أحضانها، والتي قد ترقى إلى تاريخ بناء القلعة نفسه، فهي تفتش المنطقة الشرقية من هذه الأوابد الأثرية، ويطلق عليها اسم "البارة" تيمناً بالاسم القديم نفسه، بينما يطلق الآن على الأوابد الأثرية نفسها اسم "كفر البارة".

الروحية بلدة أثرية أخرى من روائع بلدات جبل أريحا وتغطي مساحة جغرافية كبيرة، ويرصعها العديد من الصروح الأثرية الخلافة التي تتميز بطراز معماري رفيع، ولمسنا من خلال أنقاضها أيضاً وجود حيّ تجاري صغير، لكن أبرز ما يميزها الفيلات⁶ الرائعة التي تنتشر فيها

5 منشورات البعثة الأثرية الأمريكية إلى سوريا، الفصل الثاني، ص. 159، 243-244.

6 المرجع السابق نفسه، ص. 122، 177، 255.



الشكل 124 كروم الزيتون وسط مدافن البارة



الشكل 125 الحي المكتظ في البارة

بأعداد كبيرة، والكنيسة⁷ القديمة والجديدة، والمدافن⁸ المحفوظة بشكل مذهل، ومعبدان اثنان يرتكز الرواق الأمامي في كلٍّ منهما على عمودين ومعبد واحد مسقوف بقبة حجرية. وبالعودة إلى حاس فقد تم تدمير هذه البلدة الأثرية أثناء بناء كلٍّ من القرية الحديثة الحالية فوقها خلال الحقبة الإسلامية، والمسجد⁹ الذي يعود إلى العصور الوسطى؛ لكنّ صروح مدافنها¹⁰ الأثرية التي تُوَطر مشارفها تشير إلى أن بلدة حاس الأثرية هذه كانت بلا شك واحدة من أهم المدن في المنطقة. وبالفعل تعد خربة حاس الواقعة بالجوار بلدة سكنية بامتياز تكتنف الكثير من الفيلات الراقية وكنيسة¹¹ قديمة أنيقة ومدافن مثيرة نحتت في جوف الصخر، لكنها تحولت إلى مكان يخيم عليه السكون والوحدة بعدما طالتها الآن براثن الهجر والوحشة. وبالانتقال إلى مجلياً فقد أقيم فيها حي تجاري صغير أيضاً، وكنيسة¹² قديمة جداً، وعمودية¹³ ترجع إلى فترة متأخرة، ومجموعة كبيرة من بيوت سكنية فسيحة تطلّ على شوارع تفصل بينها، وتبدو عمائرها أكثر تراصاً وتلاحماً من العمائر السكنية في أية مدينة أخرى من هذه المدن الأثرية. أما أريحا فلم يبق من كنوزها الأثرية سوى المدافن المحفورة في الوجه الصخري لمنحدراتها الجبلية لأن القرية الحالية بنيت على أنقاض المدينة القديمة ومن حجارها المدمرة نفسها. هذا وتمتع معظم القرى التي ترقد على المنحدرات السفلية لجبل أريحا - مثل أريحا والدانا - ببساتين عامرة تمتلئ بأشجار الزيتون وتروي قصصاً وحكايات كم كانت الهضاب والمنحدرات العلوية ذات أرض خصبة قبل انجراف التربة التي كانت تغطيها. وهناك سرجيلا ودلوزة وكوكبة وكفرنبل ودير سنبل (الشكل 126)، والعشرات من المواقع الأخرى، مثل خربة حاس، وجميعها في المضمون بلدات سكنية تتكون من فيلات من النوع الموصوف أعلاه. وثمة أعداد قليلة أيضاً من مواقع صغيرة كانت عبارة عن أديرة معزولة، أو تجمعات صغيرة أخرى، أو مبانٍ منفردة، لكن معظم المواقع الواردة على خارطة جبل أريحا المرفقة هنا كانت بلدات صغيرة، رغم أن بعضها حافظ على شكله على نحو أفضل بكثير من بعضه الآخر.

7 المرجع السابق نفسه، ص. 99-227.

8 المرجع السابق نفسه، ص. 113، 163، 248.

9 المرجع السابق نفسه، الفصل الرابع، ص. 184.

10 المرجع السابق نفسه، الفصل الثاني، ص. 160.

11 المرجع السابق نفسه، ص. 93.

12 المرجع السابق نفسه، ص. 96.

13 المرجع السابق نفسه، ص. 238.



الشكل 126 دير سنبل، إحدى البلدات المهجورة ذات الفيلات الفاخرة في جبل أريحا

أما فيما يتعلق بتحديد تواريخ هذه البلدات الأثرية، فيمكننا القول: إن العمائر التي تأكدنا بشكل قاطع أنها ترقى إلى ما قبل القرن الرابع للميلاد - وذلك بالاستناد إلى الأدلة التي جمعت من مبانها ونقوشها الوفيرة - تعد نادرة تقريباً. فثمة بقايا لمعبد في خربة حاس، يُعتقد أنه يرجع إلى القرن الثاني للميلاد، وهناك مدفن¹⁴ في معرة بيطار منقوش عليه العام 250 م، ووجدنا أيضاً عدداً قليلاً من المباني القديمة التي قد تنسب إلى فترة ما قبل القرن الثالث للميلاد. لكن الحركة العمرانية هنا شهدت أوج ازدهارها في القرن الرابع للميلاد والذي يعد الحقبة الأهم في تاريخ البناء في هذا الجبل؛ إذ نقشت تواريخ ترجع إلى الفترة ما بين 350 و400 للميلاد على بعض المنازل الأكثر نغامة والمدافن الأشد إثارة في جبل أريحا، ومما لا شك فيه أن بعض الكنائس الأعظم شأناً ترقى إلى ذلك القرن أيضاً. كما أضفى القرنان الخامس والسادس للميلاد بصماتهما الخاصة على هذا التطور العمراني؛ إذ شيدت خلالهما معالم لها طابع خاص يختلف بعض الشيء عن أساليب البناء في القرن الرابع، رغم أن عمائرهما هذه كانت أقل عدداً، باستثناء الجنائزية منها. لكننا لم نشهد في هذه المنطقة أية نقوش مؤرخة ترجع إلى ما بعد القرن السادس للميلاد، إذ يبدو أن حركة البناء لم تكن تتمتع بالنشاط نفسه في تلك الفترة. وهذا الأمر ينطبق بالطبع على كافة أرجاء وسط سوريا.

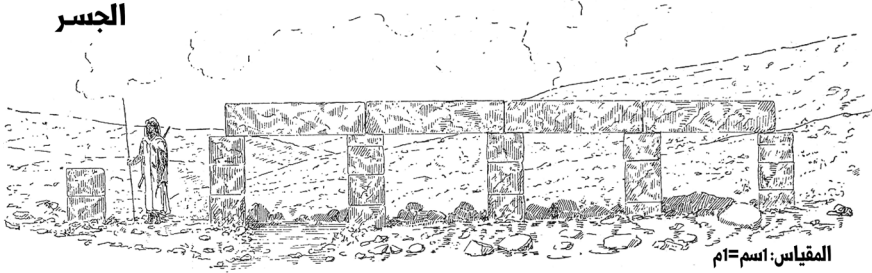
44 كفرومة

تقع هذه القرية الحديثة والصغيرة نسبياً على مسافة لا تبعد كثيراً عن سفح جبل أريحا، ومع ذلك فهي ما تزال داخل إطار تحومه الصخرية. وقد بنيت على أنقاض مدينة قديمة ومن مواد بناء قديمة؛ فكانت النتيجة أن تداخلت أجزاء من الجدران القديمة، وكسر من الزخارف المعمارية المنحوتة، بين جدران كل مبنى من مباني القرية الحديثة؛ لكننا لم نعثر فيها على أي منزل من المنازل الأثرية القديمة التي بقيت قائمة بشكل كامل أو شبه كامل وتم ترميمها لتصبح صالحة للسكن من جديد. ويبدو أن البلدة الأثرية التي كانت قائمة في هذا الموقع قد تعرضت للدمار أثناء بناء قرية كفرومة الصغيرة فوقها؛ ومع ذلك، مازالت بعض الآثار حولها قائمة حتى اليوم، ومنها آثار جسر قديم يقع إلى الشمال أسفل القرية في بطن الوادي فوق حوض جدول صغير، لكنّ ماءه نضب تقريباً رغم أننا في نهاية موسم الأمطار؛ وثمة عدد من المدافن المحفورة في جوف المنحدرات الصخرية المقابلة للقرية في الجهة الأخرى من الوادي، سواءً أكانت من المدافن الهامة أو الأقل أهمية؛ وأخيراً هناك أوابد نصب تذكاري عمودي (الشكل 127) يعتلي قاعدة طبيعية باسقة.

الجسر

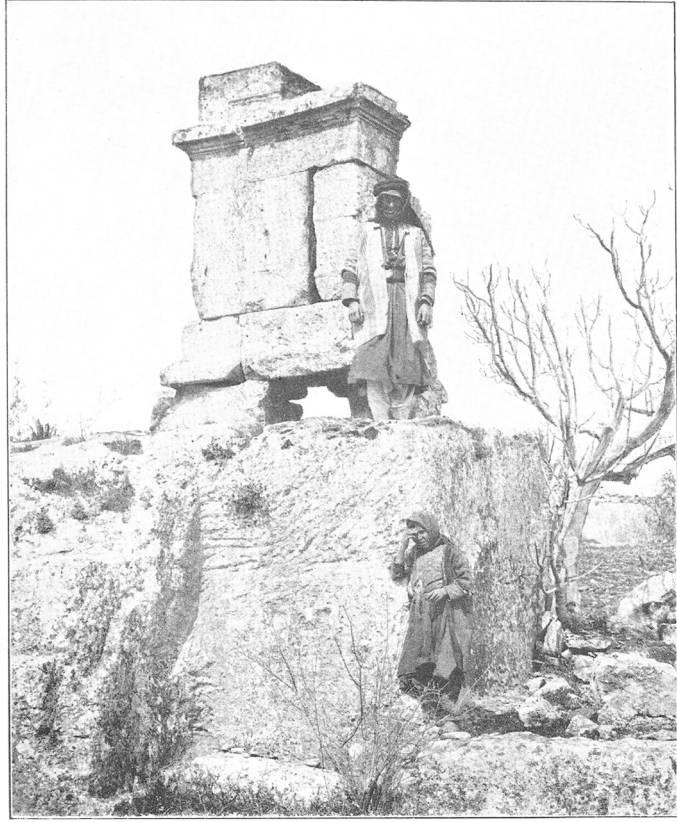
مهما بحثنا شرقاً وغرباً فإننا لن نجد أفضل من جسر كفرومة هذا كمثال نموذجي عن الجسور الحجرية القائمة بدون أقواس (الشكل 128). إنه واحد من الجسور التي يرجع الفضل في تشييدها على الأغلب إلى الإغريق القدماء، ويزيد طوله عن 25 متراً وعرضه عن أربعة أمتار، ويرتكز على ما لا يقل عن عشر دعائم يفصل بينها عدد مماثل من المجازات، ويصل ارتفاع النقطة الأعلى فيه إلى حوالي مترين. وأغلب الظن أن النهر الذي كان يتدفق تحته منذ دهور مضت والذي كان ينبع من أعلى قمم جبل أريحا، كان نهراً غزيراً وعريضاً خلال أشهر معينة من السنة على أقل تقدير، الأمر الذي كان يقتضي إقامة جسر بهذا الحجم؛ ولكنّ منسوب هذا النهر - بحسب رواية السكان المحليين - تراجع كثيراً وغدا ماؤه ضحلاً وقليلاً بالكاد نجده لأكثر من يوم أو يومين في السنة، فحتى الغلام الصغير لن يعجز الآن عن الخوض فيه بدون أي مجهود يذكر. وما تزال خمس من دعائم هذا الجسر، مع جزأين من دعامتين أخريين، قائمة حتى الآن وتصل بينها ألواح حجرية كبيرة تشكل الطريق فوقه. ويظهر الحجم الحقيقي لهذه الدعائم والألواح الحجرية الواصلة بينها في الرسم المصغر القائم على القياسات والمعروض في (الشكل 129)، ونشاهد من خلاله أن

كفرومة الجرس



الشكل 129

المجاز الشمالي الأخير من المجازات الباقية كان فعلياً يشكل منتصف الجسر، لأنه يرتفع فوق النقطة الأعمق من الوادي، وعلى جانبي هذه النقطة تبدأ أرض النهر بالتقعر للأعلى على نحو متناظر من الجانبين، وبذلك يصل الطول الإجمالي لهذه المجازات مجتمعة إلى حوالي 25 متراً أو أكثر بقليل. في حين أن المجاز الأخير من جهة الجنوب يعرض بداية الخدار طفيف في نهاية الجسر. هذا وإن قياس أعرض جزء في الطريق المحمول على الجسر الآن يصل إلى أربعة أمتار؛ لكن لا توجد بقايا لأي نوع من أنواع المتاريس عليه، ومع ذلك أعتقد أنه كان يحتوي على متراس يحيط به من الجانبين في يوم من الأيام، لأن جميع حجارة الجسر المتكسرة كانت قد نقلت من هنا. ومن المرجح أن هذا الجسر كان يقع على خط طريقٍ قديمٍ، لكنه لم يكن باعتقادي مجرد نقطة عبور لأحد الحيوانات المحملة بالبضائع الثقيلة التي يمكن أن تسلك هذا الطريق بين الحين والآخر، وبعبارة أخرى، كان هذا الطريق - على الأغلب - مخصصاً لعبور المركبات والعربات بكل أنواعها وإلا فلن يكون هناك داعٍ لإقامة جسر بعرض أربعة أمتارٍ لغير هذا الغرض، ولعل الآثار الطفيفة للخدوش الطويلة التي ما تزال واضحة في ألواح الطريق القائم على هذا الجسر أكبر دليل لإثبات صحة هذه الفرضية. في الواقع، لم تكن الطرق القديمة التي تصل بين بلدات هذه المناطق الجبلية في سوريا مرصوفة بكامل حجرية، على غرار الطريق الإمبراطوري¹⁵ العريض الذي كان يصل بين مدينتي أنطاكية وخلكيس، وربما كان يمتد إلى نهر الفرات أيضاً، وما يزال قسمٌ منه محفوظ حتى الآن بشكل جيد بالقرب من سرمداء، وبالتالي لم يبق من هذه الطرق القديمة ما يميزها اليوم سوى جدرانٍ حدوديةٍ متوازيةٍ تباعد عن بعضهما البعض مسافة خمسة أمتار أو أكثر بقليل، تمتد كالسياج على جانبي كل طريقٍ منها. وقد لاحظنا أن أرضية الطريق كانت مصنوعة في بعض

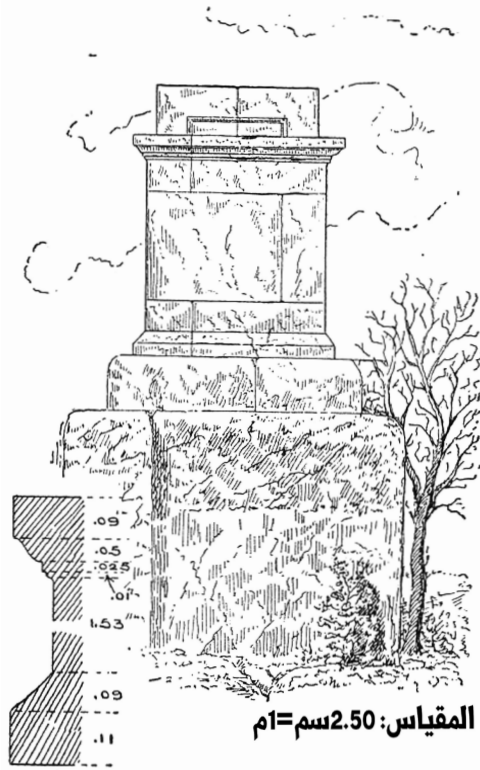


الشكل 127 كفرومة، قاعدة النصب التذكري العمودي



الشكل 128 كفرومة، الجسر

كفرومة



الشكل 130

أجزائها من قطع حجرية مكسّرة، ولا بد أن هذه الأجزاء كانت مردومة في الأصل بطبقات من الأتربة، لكنها اختفت الآن مع بقية التربة التي انجرفت نحوها من منحدرات جبال شمال سوريا، تاركة الصخور الحية مكشوفة ورائها، ولم يبق من هذه الأتربة سوى بقع قليلة وجدت مأوى لها في التجاويف المتروكة بين الصخور. وبما أن هذه الطرق الترابية الواصلة بين هذه البلدات الجبلية كانت قد اختفت بالطلق، في ظل الظروف المذكورة، فلم أتمكن من العثور على أية آثار واضحة للطريق الذي كان ممتداً على جانبي جسر كفرومة هذا، إلا أنني - في الحقيقة - لم أبحث كثيراً عنه على بعد مسافات طويلة عن جانبي الجسر.

النصب التذكاري العمودي

لقد ورد وصفٌ موجزٌ مرفقٌ برسمٍ تخطيطي لهذا النصب التذكاري في منشورات¹⁶ البعثة الأمريكية إلى سوريا. لكنني عندئذٍ لم أشاهده بأمر عيني أثناء مرافقتي لتلك البعثة، ولذلك فقد اعتمدت في رسمي له على صورة من صورته التي التقطها السيد برينتس Mr. Prentice. وقد تراءى لي من خلال تلك الصورة، والتي لم تكن واضحة تماماً، أن منصة هذا النصب مع قاعدة العمود الذي يعتليا والحجارة الأسطوانية السفلية من بدنه كانت في الأصل تنتمي إلى نصبٍ مؤلف من عمودين، على غرار نصبي بنابل وسرمدا، ولكن بعد زيارتي الثانية لهذا الموقع برفقة هذه البعثة، وجدت أن المنصة مربعة، وأنه لم يكن يعتليا سوى عمود واحد. ومنذ تلك الزيارة الأولى والتي تمت في عام 1900، انهارت الحجارة الأسطوانية القليلة التي كانت متبقية من بدن هذا العمود، ولكن بقيت المنصة سليمة فوق قاعدتها الشائخة المحفورة في الصخر الحي (الشكل 127). ويعرض الرسم المصغر القائم على القياسات في (الشكل 130) أبعاد المنصة وتناسقها ومقاطع قوالبها والقاعدة السفلية للعمود فوقها. وكان هذا العمود ينتصب بكل شموخ وإباء وسط مقبرة احتضنت بين جنباتها العديد من المدافن المحفورة في جوف الصخور الحية. ولا شك في أن هذا النصب التذكاري كان الجزء العلوي الظاهر لأحد المدافن المطمورة تحت الأرض. وثمة كتابة¹⁷ نقشت على لوحة نافرة نحتت على إحدى الحجارة الأسطوانية السفلية لبدن العمود، لكن النقش بدا ناقصاً ولم يذكر تاريخ تشييد هذا الصرح. ومع ذلك، فإن قوالب هذا النصب وجودة صقل حجاراته تعد أكبر دليل على أنه يرقى إلى القرن الثاني للهيلاد. ويمكن مقارنته بالنصب العمودي في تدمر وبالنصب ذي العمودين في سرمدا¹⁸ والذي يعود تاريخه إلى عام 132 م.

45 سرجيلا

تفتش أوابد سرجيلا الجزء الأعلى من المنحدر الشرقي لجبل أريحا تحت القمة مباشرة. وتتميز بنية هذا الموقع بشكلها المنحني الجوف الشبيه بشكل المسرح اليوناني، ويتعرج فيه حوض غدير قديم نصب ماؤه منذ عهد بعيد (انظر مخطط سرجيلا). وفي أدنى بقعة من هذا الموقع، وعلى مقربة من مركزه ذي الشكل نصف الدائري، يرقد الحمام في مكان مثالي يسمح لكل سيول المياه المتدفقة

16 المرجع السابق نفسه، ص. 63.

17 الفصل الثالث، النقش رقم 1060.

18 منشورات البعثة الأثرية الأمريكية إلى سوريا، الفصل الثاني، ص. 59.

من قمة الجبل أن تنصّب وبكل سهولة في جوف نحرّانه الضخم. وليس هناك مبان على الأرض المرتفعة شمال الحمّام، والتي تشغل فعلياً مركز المنحنى الجوّف لهذا الموقع؛ إلا أنّ المنحدرات على جانبها الشرقي والغربي كانت مرصّعة بعدد كبير من الأبنية. وتترى كنيسة سرجيلا على المنحدر الشرقي من هذا الموقع، في منتصف المسافة تقريباً نحو قمة الجبل، وتنتشر حولها مجموعة من العمائر الكنسيّة. بينما تفتّرش مجموعات من البيوت السكنية - الكبير منها والصغير - المنحدرات الممتدة فوق الكنيسة وأسفلها إلى الجنوب الشرقي منها. وهناك فيلات تعتلي المنحدر الغربي لهذا المنحنى الجوّف وفيلات أخرى تنتشر حول قته. أما في الجهة الجنوبية الغربية من هذا الموقع وفي كل بقعة منها، فتتأثر مدافنٌ محفورة في جوف الصخر وأنقاضٌ لمدفن هرمي صغير. وعلى الهضبة الشامخة وراء هذه المدافن، ثمة صرحٌ لمدفن¹⁹ آخر كان قد وصفه إم دي فوجيه في منشوراته، وهو بالفعل مدفنٌ مثيرٌ للاهتمام ويبدو أشبه بصرحٍ صغير. أما المقبرة الأساسية لسرجيلا فتقع أعلى المنحدر في الجهة الشمالية الغربية من الحمّام، وأبرز ما يميزها النواويس الكبيرة المنتشرة في العراء. ويعمل بعضها على سدّ فتحات بعض القبور المحفورة في الصخر، بينما يرتفع بعضها الآخر قليلاً عن سطح الأرض على أربع كتلٍ حجرية قليلة الارتفاع، لكن لم يكن هناك منصّات تحت أيّ ناووس منها. وبالطبع، تعرّضت جميع هذه النواويس للنهب، وترك بعضها مكشوفاً، في حين أن أغلبية بعض النواويس الأخرى كانت مكسورة إلى نصفين، أو مزاحة قليلاً إلى أحد الجانبين ومتروكة على الهيئة ذاتها التي تركها عليها اللصوص الأوائل. ويصوّر المخطط²⁰ الذي نشره إم دي فوجيه عن هذه المقبرة شكلها الحالي، والذي ظلّ دون تغيير يذكر لقرون عدة؛ كما يعرض الرسم التوضيحي²¹ في منشورات البعثة الأمريكية إلى سوريا ناووساً واحداً من ناووسها والذي يعدّ كافياً كحجّة تجسد الشكل العام لبقية النواويس. لقد كانت المنحدرات على جانبي الوادي متدرّجة، وعلى هذه المصاطب المصطنعة، وعلى الأراضي المنبسطة الطبيعية التي تفتّرش الأرض حولها على حد سواء، توزعت صفوفٌ من الأعمدة الصخرية المؤلفة من قطعة واحدة والمنتصبة بشكل شاقولي وهي الأعمدة نفسها التي قمت بوصفها أعلاه كدعامات لعرائش الكرمة. كما أحاطت ببعض هذه المصاطب أسوارٌ بنيت من حجارة صغيرة ممزوجة بالطين، ولا تزال مداخل هذه الأسوار أو بواباتها قائمة في مكانها، في حين أن الأسوار نفسها كانت قد انهارت وتحولت إلى صفوفٍ من أكوامٍ من الحجارة الصغيرة ذات الأشكال المختلفة. وتوزعت على جانبي بعض الشوارع صفوفٌ من هذه الأعمدة تراكت بينها أكوامٌ من الحجارة المتكسرة أيضاً؛ وأغلب الظن

19 سوريا الوسطى، الرسم التوضيحي رقم 85.

20 المرجع السابق نفسه، الرسم التوضيحي رقم 86.

21 منشورات البعثة الأثرية الأمريكية إلى سوريا، ص. 251.

أن جدراناً من حجارة غير مترابطة ومثبتة بالطين كانت قد بنيت إلى نصف ارتفاع هذه الأعمدة الصخرية، وأن النصف العلوي كان مخصصاً لدعم عرائش الكرمة. ونشاهد في الصورة الفوتوغرافية للمنحدرات الشرقية لمدينة سرجيلا في (الشكل 131) بعضاً من هذه الأعمدة التي لا تزال قائمة حتى الآن، وبعضاً من الأسوار المدمرة حول المصاطب المتدرّجة، وعدداً من بوابات كروم العنب التي بقيت صامدة رغم انهيار جدرانها.

الكنيسة

تشغل هذه الكنيسة بقعة مميزة في مدينة سرجيلا تقع تقريباً في وسط منحدراتها الشرقية؛ وقد حفرت الكتلة الصخرية الممتدة أمامها حفرة شديدة الانحدار لتأمين مساحة لإقامة فناء لأحد المنازل الذي بني على بقعة أرض تحت مستوى أرض الكنيسة، ولكن بقي من هذه الكتلة شريط ضيق على شكل منصة امتدت أمام الكنيسة مباشرة وشريط آخر على شكل طريق يؤدي إلى أعلى المنحدر الغربي للمدينة. وقد استقرت النهاية الشرقية للكنيسة في جوف المنحدر الصخري على عمق متر أو أكثر. لكن لم يبق من هذه الكنيسة الآن سوى كتلة من الأنقاض، لا سيما بعد انهيار أقواسها الداخلية انهياراً تاماً. ومع ذلك ما تزال جدران الحنية وغرفة الشماسة المجاورة لها من الطرف الجنوبي محفوظة بحالة جيدة، كما تنتصب بعض الجدران الأخرى من مبنى الكنيسة على ارتفاع مترين، ولكن نظراً لامتلاء جوفها بمواد البناء المنهارة التي اكتست بأجمات شجرية كثيفة، فإن نسبة الدمار تبدو أكبر بكثير مما هي عليه بالفعل. أما المباني المنتشرة حول فناء الدير جنوب الكنيسة فقد حافظت على شكلها بحالة مذهلة. وقد قامت البعثة الأمريكية بنشر مخطط لهذه الكنيسة وصورة²² عنها، ولكن المخطط الذي قمت شخصياً برسمه أثناء البعثة الأولى لم يكن دقيقاً تماماً في بعض تفاصيله (وأخص بالذكر التفاصيل التي اعتمدت فيها على عامل التخمين في المخطط)، وذلك نظراً للفوضى العارمة التي كانت تعم المكان آنذاك. أما خلال زيارتي الثانية لهذه الكنيسة، فقد توصلت إلى رسم مخطط أفقي كامل لها مع معظم تفاصيلها بعد إزالة بعض الركام، الأمر الذي ساعدني على ترميم بنيتها الفوقية في المخطط. ولم يكن ميناها كبيراً جداً، وإنما كان عبارة عن بازليكا طولها حوالي 17 م وعرضها 12 م. ويبدو مخططها (الشكل 132) فريداً من نوعه لا سيما فيما يتعلق بتصميم غرفة القديس فيها، فبدلاً من وجود غرفة صغيرة ومربعة على أحد جانبي الحنية، تتخذ هذه الغرفة شكلاً شبيهاً بالجنح المستعرض المنبثق عن الجناز الشمالي للكنيسة، وفيها قوسٌ مدبجٌ خاصٌ بها وهيكلٌ مستطيلٌ مجاورٌ للحنية؛ وما تزال

22 المرجع السابق نفسه، الفصل الثاني، ص. 95-96.

ركائز درابزين هذا المذبح موجودة في موقعها الأصلي. وربما كان هناك في هذه الغرفة مذبح حقيقي للقداس، ولكن يتعذر علينا أن نتأكد مما إذا كان هذا القسم من الكنيسة قد صمم في الأصل على هذا الشكل الفريد أو أنه جاء نتيجةً لعمليات ترميم لاحقة. وما ساعدني بدايةً على تحديد المسافات بين أعمدة الصحن اكتشاف العديد من النجفات المعقودة، والتي عملت على تقسيم الصحن إلى سبع فسحات، ثم جاء العثور على عددٍ من قواعد الأعمدة التي لا تزال في موقعها الأصلي كدليل إضافي للتأكيد على هذا العدد. ويمكن الوصول إلى غرفة الشماسة إما من خلال المدخل الموجود في نهاية المجاز الجنوبي للكنيسة، أو من الباب الضيق الذي يصلها مباشرةً مع الحنية. ويوجد فيها خزانة صغيرة تشغل زاويتها الشمالية الشرقية بين استدارة الحنية والجدار الشرقي المستقيم للكنيسة؛ وكانت على الأرجح تستخدم لتخزين الأواني المقدسة والحفاظ عليها. أما في الجدار الجنوبي لهذه الغرفة، فثمة قوس عريض يفضي إلى غرفة أخرى لها الحجم نفسه. وإلى الغرب من هذه الغرفة الثانية، عند نهاية الرواق المعمد الذي يمتد على طول الجدار الجنوبي للكنيسة من الخارج، هناك غرفة مستطيلة يستلقي لحدٍ معقودٍ في نهايتها الشرقية. وتتصل هذه الغرفة بدورها مع المجاز الجنوبي للكنيسة عبر قوس عريض. وقد بقيت بعض أجزاء هذه الغرف الثلاث قائمة على ارتفاع طابقين. وبجوار هذه الغرف من جهة الجنوب نجد المباني التي تمتد على الجانب الشرقي من فناء الدير، وأولها غرفة مستطيلة فيها بابان يفضيان إلى الفناء، وفي داخلها كُوتٌ طويلةٌ مفتوحةٌ في جدارها الداخلي المحفور في الصخر الطبيعي، وثانيها المجاز الضيق، أو الممر الذي يصل بين الفناء من الداخل والشارع من الخارج. وهناك في الخارج صفٌ من الدعامات على شكل رواقٍ يمتد حتى جدار الكنيسة. وفي الجهة المقابلة من الممر، في زاوية الدير، مدخلٌ يؤدي إلى كنيسة جنائزية مربعة الشكل فيها ثلاثة نواويس كبيرة. وبجوار هذه الكنيسة، على الجانب الجنوبي من الفناء، مبنى أكبر حجماً، بقيت جدرانها محفوظةً بالكامل تقريباً. ويصل طول كل ضلع في هذا المبنى إلى حوالي ثمانية أمتار، وفيه صفان من عمودين في كلٍ منهما عملاً على تقسيمه إلى ثلاثة أهباء. وقد أضيف إليه محراب في جداره الجنوبي إبان مطلع الفترة الإسلامية. ومن زاوية هذا المبنى امتد جدار مائل نحو الزاوية الجنوبية الغربية للكنيسة مما أدى إلى إغلاق الجانب الغربي من فناء الدير هذا، والذي يتمتع بشكله غير المنتظم، وبالتالي إلى تحوير الدير كاملاً.

وبناءً على هذا الخطط الأفقي للكنيسة، وبمساعدة أجزاءها التي لا تزال قائمة في موقعها، ومن خلال الدراسة الدقيقة للتفاصيل التي انهارت منها، لم يكن من الصعب التوصل إلى ترميم بنيتها الفوقية ترميماً كاملاً (الرسم التوضيحي رقم 12). حيث تمكنا من خلال الجزء القائم من جدار



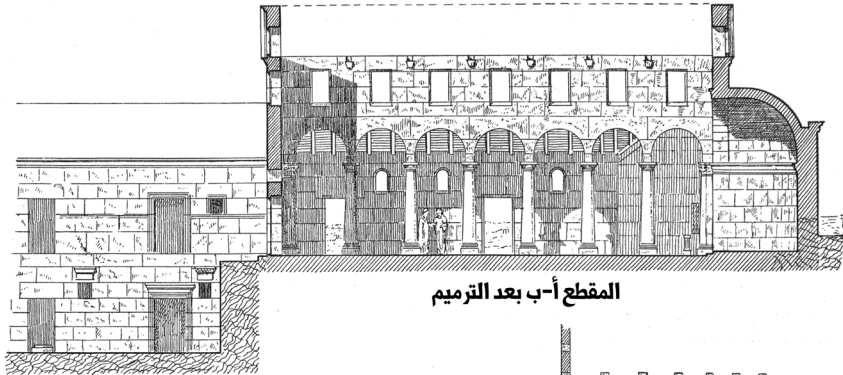
الشكل 131 سرجيلا، المنحدر الشرقي

الحنية، ومن نصف العمود عند النهاية الشرقية للباثكة الجنوبية²³، من الحصول على الارتفاعات الأساسية لأجزاء الطابق الأرضي للكنيسة؛ في حين أن جدران غرفة الشماسة، والتي بقيت قائمة حتى ارتفاع سطحها الجملوني كانت كافية لتأمين ارتفاعات الطابق العلوي. وقد تمت إعادة توظيف بعض مجارة قوس الحنية في المحراب الذي أقيم في المبنى الجنوبي خلال الحقبة الإسلامية؛ وكانت أشرطة قوالب²⁴ هذا القوس مزدانة بالكأبات والنقوش ولكن لم يحالفنا الحظ في العثور على النص الكامل لها. ولعبت التجاويف المصطفة في جدار غرفة الشماسة دوراً هاماً في تحديد درجة ميل سقف المجاز، في حين زودتنا بعض النجفات القصيرة بعرض نوافذ المنور العلوي وأظهرت أنها كانت غير معقودة من الأعلى. كما اعتمدنا في ترميم البهو الرئيس في الكنيسة على تفاصيل عدد من قواعد الأعمدة وتيجانها، وعلى العديد من النجفات المعقودة التي كانت ملقاة في الصحن. وتظهر هذه التفاصيل مكبرة في (الشكل 132). وتتمتع تيجان هذه الأعمدة بطرازها الدوري الخالي من الزخارف، إلا أن تاجي نصف العمودين على جانبي الحنية كانا غنيين بالزخارف الكورنثية، ولكن ظهر في منتصف وسادة كل منهما صليب حل محل الزخارف النباتية. وتبدو النجفات المعقودة في أقواس الصحن نسخة طبق الأصل عن النجفات التي لا تزال قائمة في أنقاض الكنيسة التي عثرنا عليها بالقرب من باب الهوى²⁵. حيث حفر القطع

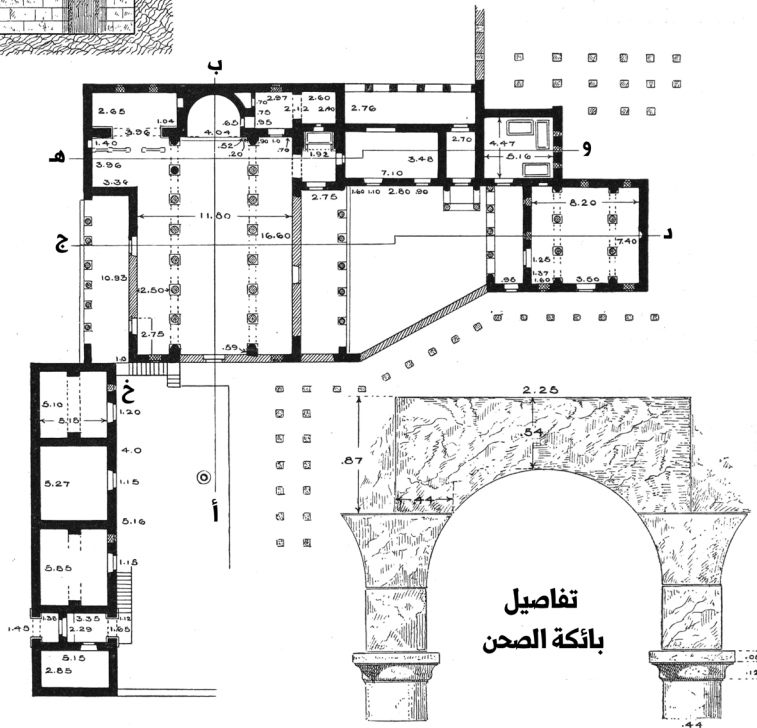
23 راجع الصورة في منشورات البعثة الأثرية الأمريكية إلى سوريا، ص. 95.

24 منشورات البعثة الأثرية الأمريكية إلى سوريا، الفصل الثالث، النقش رقم 218.

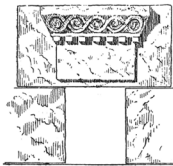
25 منشورات البعثة الأثرية الأمريكية إلى سوريا، الفصل الثاني، ص 25.



المقطع أ-ب بعد الترميم



تفاصيل
بائكة الصحن



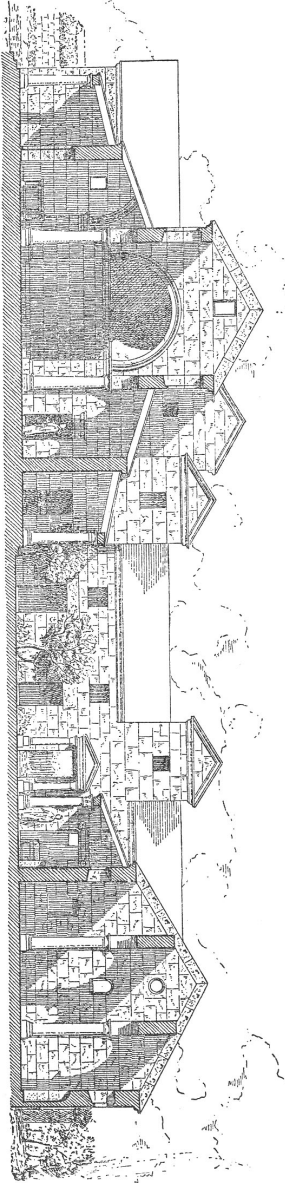
النافذة
عند
النقطة خ

سرجيلا الكنيسة والمنزل (7)

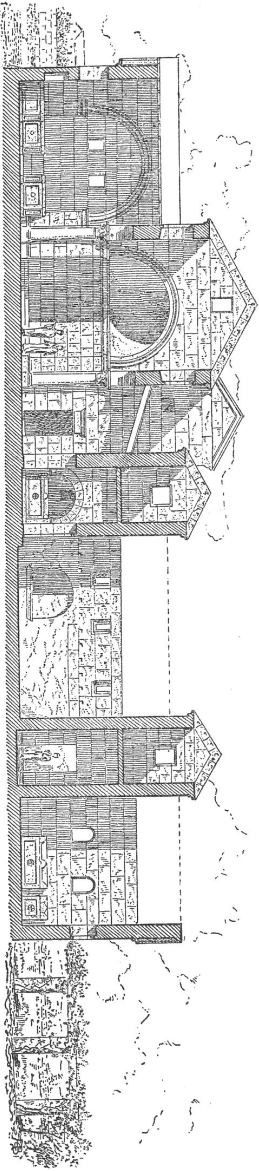
١٤٥

سرجيلا الكنيسة مع الترميم

القسم ب، الرسم التوضيحي رقم 12



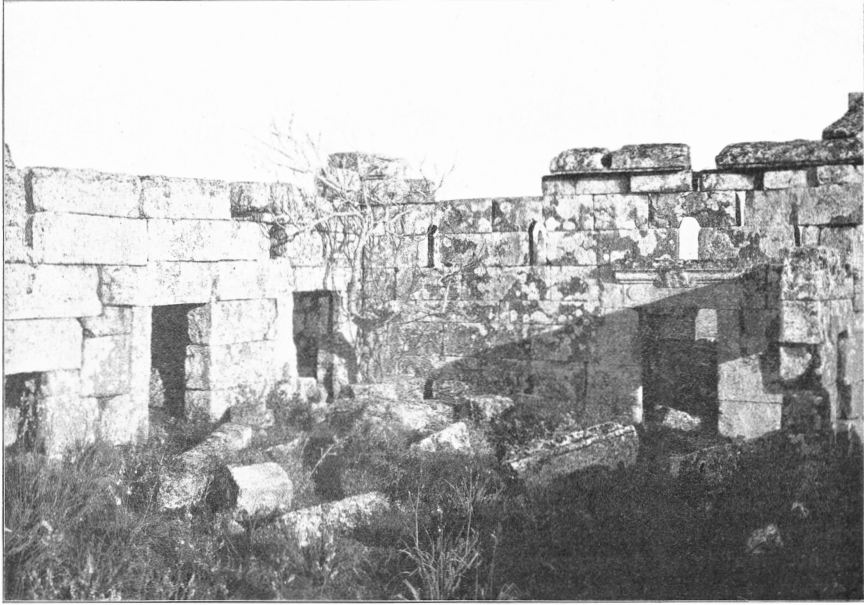
المقطع ج-د



المقطع ه-و

العلوي من استدارة كل قوس من هذه الأقواس في نجفته، بينما حفر القطّاعين المُتمّمين لنصف دائرة القوس في كلّتين متقابلتين ساهمت كل كُتلة منهما في تشكيل القطّاع السفلي من استدارة قوسين متجاورين (انظر التفاصيل في الشكل 132). ووضعت هذه الكتل على كُتل أخرى مكعبة شكّلت رجل العقد وساهمت بدورها في إطالة الأقواس بارتفاع 50 سم تقريباً. كما امتد رواقان معمّدان منخفضان إلى حدّ ما على طول الجدارين الشمالي والجنوبي للكنيسة من الخارج، ولكنهما تدمرا الآن ويقبعان في حالة خراب تام. وبالعودة إلى المباني المحيطة بفناء الدير فقد حافظت على شكلها بصورة مذهلة (الشكل 133)، وأسهمت أزهار الزنبق والعيصلان التي تنمو بوفرة داخل هذا الدير في أواخر شهر آذار وتكسوه بحلّة ربيعية زاهية، أسهمت في تقليل شعور الوحشة والعزلة التي قد تنتاب المرء عادةً عند زيارة هذه الأوابد الأثرية. وهناك رواقٌ يرتكز على عمودين صغيرين، مسقوفٌ بسطح جملوني، كان ينتصب أمام مدخل المجاز الضيق، ورواق معمد آخر يمتد أمام المبنى الكبير الواقع جنوب الفناء، وفي نهاية هذا الرواق مدخل الكنيسة الجنازية. ولهذا المبنى الكبير المكوّن من ثلاثة مجازات مدخل في الغرب يفضي إلى الخارج مباشرةً، بالإضافة إلى مدخله المفتوح على الرواق. وقد حافظ على جداره الغربي كاملاً حتى ذروة سطحه الجملوني، وثبّت النجفات المعقودة والتيجان الدورية الخالية من الزخارف، والملقاة داخل هذا المبنى، أن بائكتيه كانتا شبيهتين ببائكتي الكنيسة. في الواقع يصعب علينا تحديد الوظيفة الفعلية لهذا المبنى في ظل الوضع الحالي. ومن المستبعد تماماً أن تكون مجموعة المباني هذه عبارة عن دير للرهبان نظراً لعدم وجود مبانٍ سكنية فيها. ولهذا السبب لا يمكن أن يكون المبنى الكبير غرفةً للطعام ولا قاعةً لاجتماع مجلس الرهبان، كما لم نشاهد أية مدافن في داخله. وقد تفضي الحفريات في أرضه إلى الكشف عن جرنٍ للماء المقدس، ولكن حتى لو تم العثور على مثل هذا الجرن، وافترضنا أن هذا المبنى كان بمثابة معمودية فسيجعله هذا واحداً من أكبر المعموديات في المنطقة رغم وقوعه بمحاذاة واحدة من الكؤس الأصغر من نوعها، وهذا بحد ذاته أمر يدعو للغرابة والذهول. كما تم تحديد شكل أسطح معظم هذه المباني من خلال موضع الجملونات، سواء أكانت باقية في مكانها أو ملقاة على الأرض، ولم نلجأ إلى عامل التخمين سوى في شكل سقف الجناح المستعرض الشمالي، مع قوس مذبحه وهيكله. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن أرضية صحن الكنيسة كانت مرصّعة بالفيسفساء، وكذلك أرضية الكنيسة الجنازية، إذ وجدنا فيهما كمية من قطع الفيسفساء الصغيرة.

إن وجود الكنيسة الجنازية، وأماكن الدفن الأخرى حول الكنيسة، وخاصة داخلها، يطرح سؤالاً مهماً حول دفن الموتى داخل هذا الصرح المقدس. فن الواضح تماماً أن الأجساد التي ووريت في ثرى هذه المدافن لم تكن من الرفات المقدس لأجساد القديسين والشهداء



الشكل 133 سرجيلا، المباني الكنسية، الزاوية الجنوبية الشرقية من فناء الدير

الطاهرة. لكن لا غرابة أن يكون الرفات الدفين في اللحد المعقود بجوار الكنيسة والذي يمكن رؤيته من داخل صحنها، هو من الرفات الطاهر لشخصية كانت تتمتع بقداسة غير عادية؛ إلا أن هذا لا ينفي أيضاً أن الأضرحة في الغرف المستطيلة، والنواويس في الكنيسة الجنائزية وراءها، تحتضن رفات كبار الشخصيات الكنسية، أو مواطنين من المدينة ممن جباهم الله بكرامات روحية ودينية جعلتهم جديرين بالدفن داخل جدران هذا المجمع المقدس. وأعتقد أن كنيسة سرجيلا هذه كانت واحدة من أقدم الكنائس في المنطقة، وأعمدها الداخلية تشبه إلى حد كبير أعمدة كنيسة فافرتين التي يرجع تاريخها إلى عام 372 م، ولكن تفاصيلها الأخرى، مثل النجفات المعقودة وبعض القوالب، تشير إلى تاريخ سابق إلى حد ما، ربما يرقى إلى منتصف القرن الرابع للميلاد. أما المباني المحيطة بالفناء فيبدو أنها ترجع إلى فترات لاحقة قد تنسب إلى نهاية القرن نفسه تقريباً، وذلك بناءً على شكل زخارف نجفاتها ونقوشها الأخرى.

الحمام

إن هذا الحمام العام في سرجيلا والذي يعود إلى عام 473 م يعدّ المبنى الأروع من نوعه في سوريا، وهو غني عن التعريف، حيث نشر عنه إم دي فوجيه سابقاً في كتابه الشهر²⁶، الذي يعدّ المرجع الأهم المذكور مراراً في أغلب صفحات منشوراتنا هذه، وذلك قبل أن تقوم البعثة الأمريكية بزيارة هذا المعلم واكتشاف الأرضية الفسيفسائية²⁷ التي بقيت محفوظة مع نقشها²⁸ الفريد الذي حدد تاريخ الحمام وأرجعه إلى عام 473 م، ووثق أن شخصاً يدعى جوليانوس قام مع زوجته دومنا بتقديم هذا الحمام بكلّ كرم وسخاء كهبة إلى أهل مدينة سرجيلا. لقد خلّدت منشورات البعثة الأمريكية إلى سوريا دراسات إم دي فوجيه عن هذا الحمام وذلك بنسخ المخطط الذي رسمه له وعرض صورتين من الصور التي التقطها له بين صفحاتها²⁹، وسأرفق في منشوراتنا هذه أيضاً مقطعاً عن هذا المعلم البارز، ولكن ليس لغرض إضافة أية بيانات جديدة وهامة عنه، وإنما لأنه من غير المنطقي وصف كلّ معالم مدينة سرجيلا الأثرية بدون التطرّق إلى هذه الدرّة الأثرية الهامة. وسأرفق أيضاً مخططاً أفقياً جديداً (الشكل 134) يعرض انعدام التناسق في المخطط العام للمبنى والذي قد لا يتم اكتشافه بسهولة في مخطط إم دي فوجيه. وهناك أيضاً رسمان مرفقان: أحدهما للواجهة الجنوبية للحمام والتي تختلف في بعض تفاصيلها عن الواجهة نفسها التي وردت في كتاب "سوريا الوسطى"، وقد حاولنا فيها ترميم الأسطح؛ أما الرسم الآخر فهو للواجهة الشرقية ويظهر فيها أيضاً أن نوافذ الطابق الثاني على هذا الجانب كانت مؤطرة بالقوالب، وتعد هذه الإطارات من السمات المميزة لرخارف النصف الثاني من القرن الخامس للميلاد. وبعد إجراء دراسة دقيقة للمخطط، قررت اعتماد التقسيمات نفسها التي اعتمدها إم دي فوجيه للبنية الداخلية لهذا الحمام، وتبني التسميات نفسها التي أطلقها على كلّ غرفة من غرفه المختلفة، إلا أنني أود اقتراح بعض التغييرات الطفيفة. فعند النقطة (أ) على المخطط، نشاهد أحد المداخل الرئيسة للحمام وكان يتألف من فتحة عالية وعريضة لم يُركب لها باب على الإطلاق. أما (ب) فهي عبارة عن ممر يتصل مع المدخل (أ) ويعد امتداداً له؛ وبالانتقال إلى (ج)، فهي إسطلب وفقاً لمخططي، وقد حفر جزء منه في جوف الصخر الطبيعي، وفيه معالف محفورة في الصخر على اثنين من جوانبه، وتجاويف كانت تحتوي على الأغلب حلقات لربط الحيوانات. ويتسع المدخل (أ)

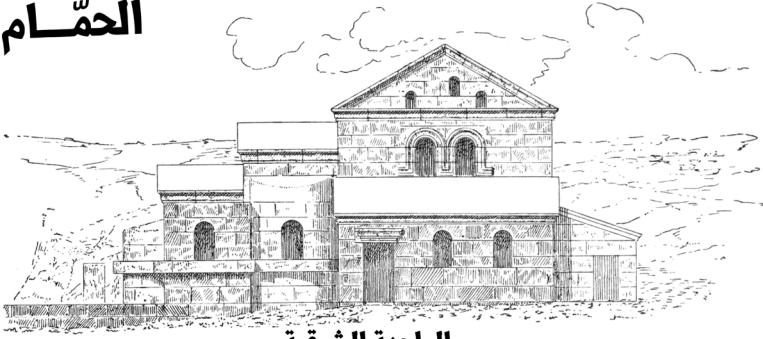
26 سوريا الوسطى، الرسوم التوضيحية ذات الأرقام 55-57.

27 منشورات البعثة الأثرية الأمريكية إلى سوريا، الفصل الثاني، ص 288-293.

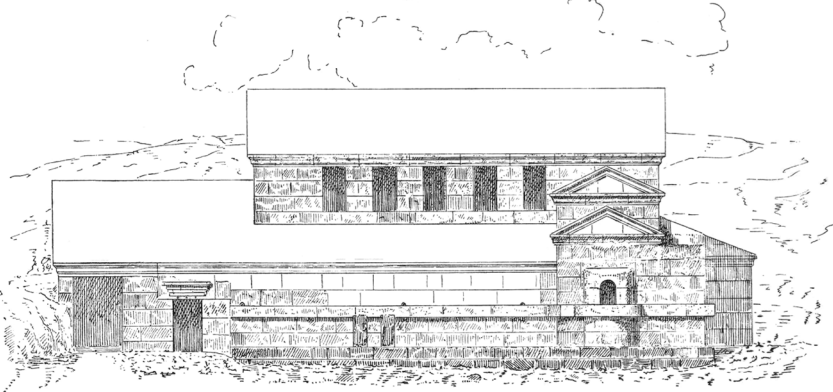
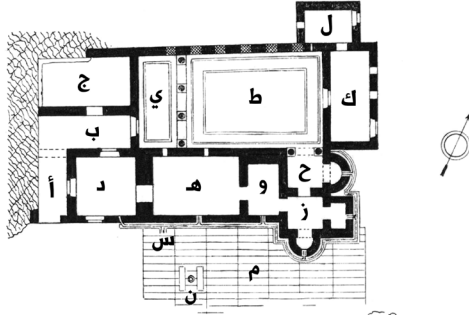
28 المرجع السابق نفسه، الفصل الثالث، النقش رقم 220.

29 منشورات البعثة الأثرية الأمريكية إلى سوريا، الفصل الثاني، ص 165-166.

سرجيلا الحمّام



الواجهة الشرقية

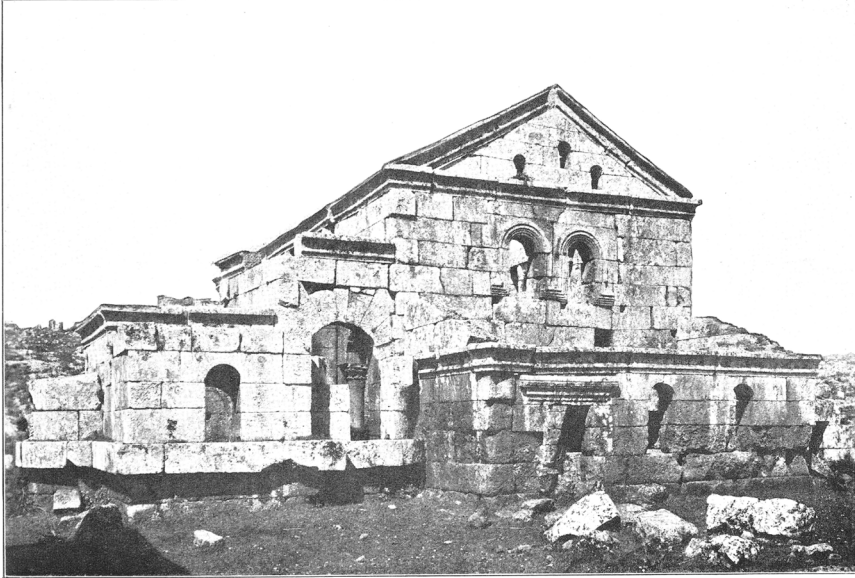


الواجهة الجنوبية

لمرور الخيول فيه بكل سهولة ويسر، وأعتقد أن هذا المدخل كان المدخل الأساسي للزبائن الذين كانوا يرتادون هذا الحمام ويأتون إليه على ظهور خيولهم من المدن المجاورة، وكانت خيولهم هذه تُصطحب إلى الغرفة (ج) للاغتناء بها. وفوق الغرفة (ج) كانت هناك غرفة مخصصة على الأرجح لإقامة القيم على الحمام، في حين أن إم دي فوجيه كان قد خصص غرفة الطابق الأرضي (ج) لهذا الغرض. أما (د) فيعتقد إم دي فوجيه أنها كانت مخصصة لغرفة المرجل، لكنها كانت باعتقادي المكان الرئيس لتحضيرات ما قبل الاستحمام، وذلك لاحتوائها على ثلاثة مداخل إضافة إلى الباب الذي يصل بينها وبين غرفة الاستحمام الأولى. كما تميزت بوابتها الخارجية بفخامتها ونحفتها المزدانة بالنقوش. أما غرفة المرجل فكانت، في تقديري، في مكان مجاور للغرفة (د)، وربما في غرفة ما تحت سطح الأرض، إلا أنه لا يمكن تحديد موقعها بدقة بدون اللجوء إلى عمليات الحفر والتنقيب. كما أنه من غير المنطقي اضطراب النزلاء للمرور من غرفة المرجل للوصول إلى الغرفة الأولى من غرف الاستحمام. وإلى الشرق من الغرفة (د) تأتي الغرفة الكبيرة (هـ) والتي أطلق عليها إم دي فوجيه في كتابه اسم "مغطس الماء الحار". ولكنها الغرفة الأكبر في الحمام من جهة الغرب، ولذلك فقد كانت على الأرجح غرفة الحمام الفاتر "الوسطاني"، والمعروفة عموماً بمجمها الكبير وتوضع عادة قبل غرفة الحمام الساخن، لا سيما أنها كانت مغطاة بسقف خشبي مائل. وإلى جانب هذه الغرفة من الشرق توجد الغرفة (و)، وتصل مساحتها إلى حوالي 2 × 4 م، وهي أصغر من كلٍّ من الغرفتين السابقتين (د) و(هـ)، ولكنها أكبر من كلٍّ من الغرفتين اللاحقتين (ز) و(ح). ويصنف إم دي فوجيه هذه الغرفة مع الغرف الثلاث الصغيرة والمقصورات الضيقة الموجودة في أقصى شرق الحمام تحت مسمى حمام البخار. ولكني أفضل أن أدعو هذه الغرفة بغرفة الماء الحار أو "الجواني"؛ إذ تتميز بجدار سميك يفصلها عن الغرفة الشمالية الكبيرة، يعادل ضعف سماكة جدرانها الأخرى، وسقف من ألواح حجرية متراسة من الحجر الجيري الأبيض. وبذلك تعد (و) الغرفة الأمثل لمجاورة المرجل، والذي يحتمل أنه كان في قبوٍ تحته. ويتخلل الزاوية الجنوبية الشرقية من هذه الغرفة مدخل ضيق يؤدي إلى الغرفة المربعة الصغيرة (ز) والتي تحتوي في جنوبها على حنية صغيرة، وفي شرقها على مدخل ضيق يصلها مع حجرة مستطيلة صغيرة. وقد سقفت الغرفة المربعة والحجرة المستطيلة كليهما بألواح حجرية، بينما سقفت الحنية الصغيرة بنصف قبة نحتت من قطعة حجرية واحدة؛ وكانت هذه الأسقف جميعها منخفضة للغاية. إن تزويد الغرفتين (و) و(ز) مع الخلوطين الصغيرتين بأسقف حجرية هو باعتقادي أكبر دليل على أن هاتين الغرفتين كانتا مخصصتين لحمام الماء الحار وحمام البخار، لأن الأسقف الخشبية في مثل هذه الغرف غير مؤهلة للحفاظ على الحرارة في داخلها وسوف تلى وتناكل خلال فترة وجيزة من الزمن. وهذا ما دفعني إلى تسمية الغرفة (ز) مع خلوتها المنحنية والمربعة بحمام البخار. وبالانتقال إلى الغرفة المربعة الصغيرة (ح) فإن لها سقفًا



الشكل 135 سرجيلا، الحمام، المشهد من الزاوية الجنوبية الغربية



الشكل 136 سرجيلا، الحمام، المشهد من الشرق

خشيباً مرتفعاً، وتفضي إلى القاعة الكبيرة من خلال قوس محمول على عمودين، وفيها حنية مسقوفة بنصف قبة من جهة الشرق، وتعد هذه الغرفة آخر غرف الحمام، وكانت بتصوري بمثابة الحمام البارد أو "البراني"، لأنه من المحال الاحتفاظ بالحرارة فيها بسبب منافذها الواسعة وسقفها المرتفع، ناهيك عن أنه مصنوع من الخشب. ولعلها كانت تحتوي نافورة من الماء البارد في حنيتها. أما القاعة الكبيرة (ط)، والتي يدعوا إم دي فوجيه بقاعة تبديل الملابس، فهي تمتد على طول الجانب الشمالي من الغرف (هـ) و(و) و(ح). وكان سقفها الخشبي ذو الميول المزدوج يخلق فوق بقية أسطح غرف الحمام، مما ترك مساحة لخمس نوافذ كبيرة، شبيهة بالمنور العلوي، فتحت فوق مستوى السقف المائل (انظر الواجهة الجنوبية في الشكل 134، والشكل 135). وفي الطرف الغربي من القاعة الكبيرة هناك صف من أربعة أعمدة تحمل المنصة (ي) المسورة بدرابزين، وكانت معدة بلا شك لجلوس المتفرجين أو جوقة الموسيقيين بحسب اقتراح إم دي فوجيه. وثمة مدخل في غرب القاعة (ط) يُخرج منه إلى الممر (ب)، وبذلك نعود إلى نقطة البداية التي انطلقنا منها في الحمام. أما في الطرف الشرقي من القاعة (ط) فهناك مدخل يفضي إلى القاعة (ك) والتي تمتد على طول الجانب الشرقي للقاعة (ط). وتوجد بوابة عند نهاية الجدار الشرقي لهذه القاعة من جهة الجنوب، بينما تشغل نافذتان كبيرتان المساحة المتبقية منه. وتعد هذه القاعة غرفة الانتظار الثانية في الحمام التي تحتوي على مدخل يفضي إلى الخارج، وهي الأقرب لمرتادي الحمام القادمين من فيلات المنحدرات الشرقية لسرجيلا، لكن ينبغي على الزبائن القادمين من هذا الجانب المرور عبر القاعة الكبيرة إلى الطرف الآخر من المبنى لبدء عملية الاستحمام والتنقل بين غرف الحمام حسب تسلسلها. وقد كانت القاعة (ك) هذه مغطاة بسقف خشبي منخفض ومائل (الشكل 136) كان يصل حتى مستوى النوافذ الشرقية للقاعة الكبيرة، وافترشت أرضيتها لوحة من الفسيفساء أسمت بتصميمها الهندسية البسيطة. أما الغرفة الأخيرة (ل) فهي عبارة عن غرفة صغيرة ذات سقف منخفض أيضاً اتصلت في أحد جوانبها مع القاعة (ك) عبر مدخل صغير، بينما بقيت حرة من جوانبها الثلاثة الأخرى، وفيها مدخل آخر يفضي إلى الخارج. ويشير الأخدود الممتد على طول جانبها الغربي إلى أنها كانت حجرة الخلاء الخاصة بالحمام. وثمة قناة صغيرة يبلغ قطرها حوالي 4 سم تخترق أسفل جدار القاعة الكبيرة بالقرب من زاويتها الشمالية الشرقية عند مستوى أرضيتها، وكانت تستخدم لتصريف المياه عند شطف أرضية هذه القاعة، لتصب في أخدود حجرة الخلاء. وبالانتقال إلى النقطة (م) على المخطط، فهي جزء من أرضية مرصوفة محمولة على مجموعة من الأقواس تحت الأرض، كانت تشكل سقف خزان مقنطر كبير طوله 16 م وعرضه 12 م، ولا يزال بعمق 4 م. أما النقطة (ن)، فنشاهد عندها البنية التحتية المدمرة لخزان علوي، ودعامات لمضخة كانت تعمل على ضخ المياه من الخزان

الأرضي الكبير في الأسفل إلى الخزان العلوي والذي كان محمولاً على الأرحج فوق سماكة الجدار الفاصل بين الغرفتين (د) و(هـ). وهناك ترعة خارجية أوقناة حُفرت في السطح العلوي لمدمكٍ حجري بارز قائم عند مستوى عتبات النوافذ امتدت من الخزان العلوي وعلى طول الجدار الجنوبي للحمام وانعطفت لتمتد على طول جزءٍ من الجدار الشرقي أيضاً. وتوضعت النقطة الأعلى في هذه الترعة مقابل الخزان الأرضي، وتشعبت فيها إلى قناتين، اتجهت إحداها نحو الغرب وامتدت لمسافة قصيرة حتى الغرفة (د) ونقلت إليها الماء عبر فتحة حُفرت في جدارها الخارجي. أما القناة الأخرى فانطلقت باتجاه الشرق وامتدت لمسافة طويلة نُقلت من خلالها الماء إلى الغرفتين (هـ) و(و) عبر فتحتين في الجدار الخارجي، وكذلك إلى حنية الغرفة (ز) وخلوتها المستطيلة عن طريق قناتين قصيرتين حُفرتا في عتبتين نافذتي هاتين الخلوتين. ثم استمر جريان الماء ليشق طريقه عبر التمرجات غير المنتظمة حول الزوايا في الجدار الشرقي للحمام ليصل إلى محطته الأخيرة في الغرفة (ح) ويدخل إليها عبر قناة حُفرت في عتبة النافذة الكبيرة في حنيتها. وهكذا عملت هذه الترعة على تأمين تغذية دائمة للمياه الباردة العذبة لكل غرفة من غرف الحمام. وكانت هذه المياه تمر بالطبع داخل أجهزة التسخين في الحمام الحار. ويقترح إم دي فوجيه أن هذا الماء كان ينصب على حجارة حارة ومتوجهة في حمام البخار لتأمين البخار اللازم للتعرق. ومن غير المستبعد أن هذا الحمام كان يحتوي على أنابيب رصاصية كانت تعمل على استجرار الماء من الخزان الكبير من جهة، ومن سخان الماء من جهة أخرى، ولكنها بالتأكيد كانت قد نُقلت من هنا منذ زمن بعيد. حمام سرجيلا من الخارج بسيط وجامد إلى حد ما (الشكلان 135-136)؛ إذ ليس فيه أية زخارف تذكر سوى تلك المتمثلة في الكورنيش المزدان بالقوالب والذي يتوج كل جدران الحمام وأسطحه الجملونية، وفي نجفة مدخل الغرفة (د) ذات القالب البسيط، وأيضاً في نجفة البوابة الشرقية ذات القوالب الأكثر ثراءً، وأخيراً في القوالب التي تؤطر النافذتين المنقنطرتين العاليتين شرقي القاعة الكبيرة. في واقع الأمر تعد قوالب هاتين النافذتين من السمات المثيرة للاهتمام في هذا الحمام لأنها نادرة الوجود نسبياً في مباني جبل أريحا، على الرغم من أنها شائعة جداً في كتائب الجبال الواقعة إلى الشمال مباشرة من هنا، وتتميز بانعطافها بزوايتين قائمتين بين فتحتي هاتين النافذتين وكذلك عند الجانبين الخارجيين حيث تمتد لمسافة قصيرة. ونظراً لأن هذا الحمام من الحمامات المؤرخة، فإن تاريخ بنائه هذا سيساعدنا على إعطاء تاريخ تقريبي لجميع المباني الأخرى المزدانة بقوالب مماثلة. وبالانتقال إلى زخارف الحمام من الداخل، فهي تقتصر على الأعمدة الكورنثية المتناسقة ذات العنصر الجمال المزدان بالقوالب والتي تعمل على حمل المنصة العلوية في الطرف الغربي من القاعة الكبيرة، وعلى درازين هذه المنصة وحجارته المنحوتة بإتقان، علاوة على العمودين الداعمين للقوس الفاصل بين القاعة الكبيرة والحمام البارد (ح). كما ازدانت الأطناف

الموزعة أعلى الجدران والداعمة للجملونات الأسطح الخشبية بقوالب بسيطة. أما السمة الأبرز في الحمام فتجلى في اللوحة الفسيفسائية التي ازدانت بها أرضية القاعة الكبيرة، وقد اكتشفها البعثة الأمريكية في عام 1900م. وهناك شرح مفصل ووافٍ عنها في منشورات هذه البعثة³⁰ مرفقاً برسم تفصيلي للجزء المكتشف من هذه الأرضية والذي تم تسليط الضوء عليه حينها. كما ورد شرح إضافي لجزء صغير من هذه اللوحة مع رسم ملون عنها في تقرير³¹ أعدته البعثة الروسية التي زارت سرجيلا في وقت لاحق من العام نفسه. وكان فريق البعثة الأمريكية قد اكتشف ثلثي هذه الأرضية اللذين كانا محفوظين بالكامل إلا من جزءٍ صغيرٍ محطّمٍ بالقرب من مركزها؛ في حين أن الفريق الروسي ساهم في الكشف عن الجزء الباقي منها والذي كان محفوظاً بالكامل أيضاً. وقد عمد فريقا البعثتين إلى طمر هذا الاكتشاف العظيم بدقة وعناية تامّتين تحت طبقة من الأتربة بعد الانتهاء من فحصه ودراسته؛ ومع ذلك، فقد وجدت بعثة برينستون هذه الغرفة خالية تماماً من الأتربة، وظهرت الأرضية الفسيفسائية في حالة محطّمة ومزرية، وذلك أثناء زيارتها لهذا المعلم في عام 1905. هذا وإن كلّ الجهود التي بذلها المتحف العثماني الإمبراطوري لإنقاذ بعض الأجزاء التي ما تزال تجسد صوراً كاملة من التصميم الأصلي لهذه الأرضية الفسيفسائية كانت قد باءت بالفشل نظراً لتدخل أحد المسؤولين المحليين، وبالنتيجة باتت معالم هذه الأرضية أثراً بعد عين.

إن هذا الحمام العام في سرجيلا واحدٌ من أفضل الحمامات المحفوظة التي تم اكتشافها حتى الآن في سوريا، إن لم يكن بالفعل أفضلها، بل أفضل الحمامات المحفوظة من نوعه التي ترجع إلى فترة تندرج بين عهدي قسطنطين وجستيان، ويعد من أبرز الأمثلة الخالدة عن منشآت الاستحمام العامة الرائجة في العصر المسيحي مقارنة مع الحمامات التي شاعت في عهد الإمبراطورية الرومانية والعصر اليوناني القديم. ولا بد أن جدرانه كانت مكسوة من الداخل بطبقة من الجص ومزدانة بالألوان كما هو مُثبت من القطع الجصية الملونة التي لا تزال مترامية في المبنى. ومن المرجح أن جدران غرفه الكبرى كانت قد ازدانت بلوحات تضاهاي بجودتها بتصاميم الأرضية الفسيفسائية. كما توضح الكسر الباقية من قرميد السطح كيفية سقف أسطح الحمام وطبيعة موادها. إن الصورة التي يستحضرها هذا المبنى للخيال تعرض مشهداً من مشاهد الحياة اليومية التي كان يعيشها سكان بلدات هذه الجبال السورية إبان القرنين الخامس والسادس للميلاد - وهو مشهد يوحي بمستوى الرقي الحضاري الذي كانوا ينعمون به في جو تملؤه مظاهر الرفاهية والرخاء.

30 منشورات البعثة الأثرية الأمريكية إلى سوريا، الفصل الثاني، ص 288.

Th. Uspensky. *Archeologiticheskie Pamatniki Sirii. Publications of the Russian Archaeological Institute in Constantinople, Sofia 1902.* VII, 1-2, p. 63-76. 31

ويُصح بدراسة هذا المبنى دراسة مقارنة مع الحمامات في مجلياً³² وبادسقا³³ وبراد³⁴ من حيث الوصف والرسومات، إذ إنه يشترك معها بالعديد من الخواص، رغم اختلافه عن كل حمام منها في العديد من التفاصيل الهامة.

”المقهى“

ثمّة صلة وصل وثيقة تربط بين هذا المبنى والحمام (الشكل 137)؛ لذا يُرّخ تصنيفه تحت قائمة المباني العامة في المنطقة وليس السكنية منها؛ إذ لا يحتوي على فناء أو حديقة مسوّرة تلتف حوله، كما هو الحال في جميع المنازل السكنية، وكان يطل مباشرة على الشارع، ولم يكن مهياً من الداخل للأغراض السكنية. وكان إم دي فوجيه أول من نشر عن هذا المعلم حينما أعد مخططاً له مع تصميم ذي مقياس صغير لإحدى واجهاته³⁵؛ كما تم وصفه مع صورة له في منشورات البعثة الأثرية الأمريكية إلى سوريا³⁶، وسأقوم هنا بتقديم شرح إضافي عنه مرفق برسم ذي مقياس كبير. ورغم صغر حجمه، إلا أنّ هذا المقهى يستحق أن نوليّه اهتماماً خاصاً، إذ يعد أحد الأمثلة الحية عن المباني العامة الأثرية، وواحدًا من أكثر المباني التي ظلت محافظة على شكلها بحالة فريدة بين جميع المدن الأثرية والمهجورة في سوريا. ويعرض مخططه (الشكل 138) رواقاً من ثلاثة أعمدة مسدوداً من كلا الطرفين، يفضي إلى داخل المبنى المؤلف من غرفة واحدة كبيرة في نهايتها صف من الدعامات تفصل بينها معالف حجرية خلفت وراءها مساحةً مخصّصةً لربط الخيول كانت بمثابة إسطبل؛ وفي إحدى نهايتي هذا الإسطبل من جهة الحمام مدخل تُرك بدون باب. وفي الطابق العلوي شرفة ترتكز على ثلاثة أعمدة، وقاعة كبيرة في الداخل، تتصل مع غرفة ضيقة وطويلة تقع فوق الإسطبل. وتتسم جدران المقهى من الجانبين ومن الخلف بخلوها من القوالب والزخارف كما كانت تقريباً خالية من المداخل أو النوافذ؛ أما واجهته الجنوبية (الشكل 138)، فقد تباغت بدقة تناسق الأعمدة والعناصر الجمالية في طبقتها الأرضية والعلوية والتي كانت مصدر سحرها وجاذبيتها. وكانت أعمدة الرواق الأرضي أطول من أعمدة الشرفة

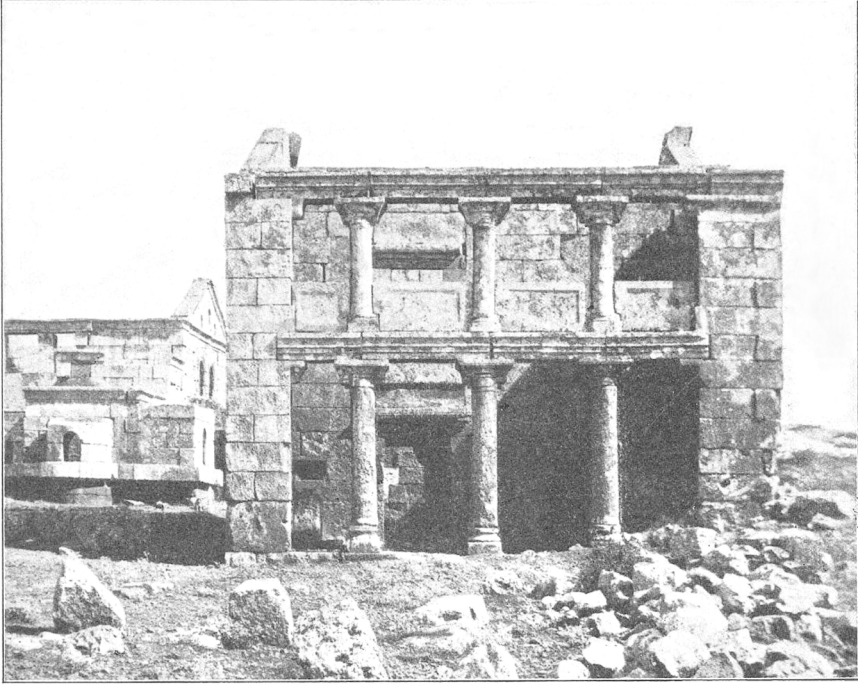
32 سوريا الوسطى، الرسم التوضيحي رقم 55. منشورات البعثة الأثرية الأمريكية إلى سوريا، الفصل الثاني، ص 264-265.

33 الفصل الثاني، القسم ب، الجزء 4.

34 المرجع السابق نفسه، الجزء 6.

35 سوريا الوسطى، الرسمان التوضيحيان ذوا الرقمين 55 و56.

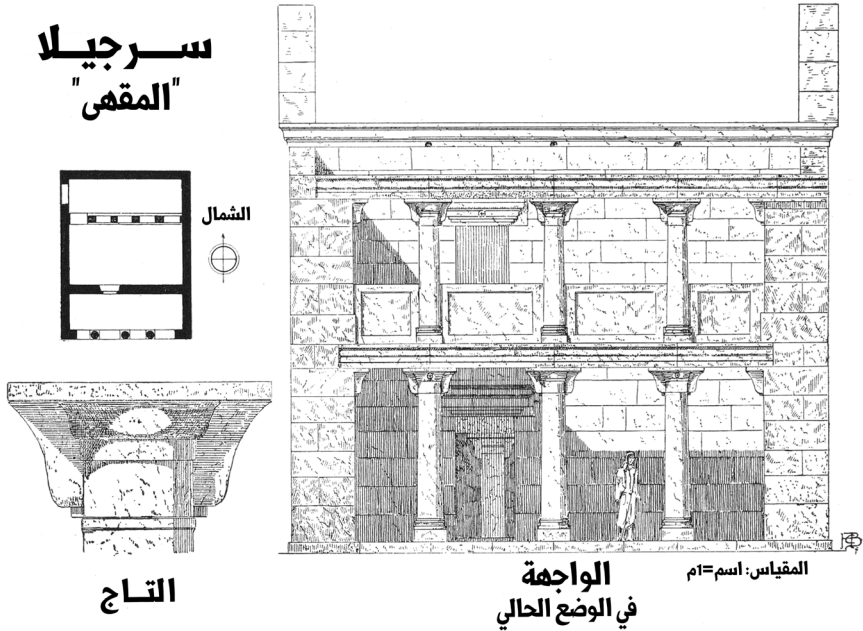
36 منشورات البعثة الأثرية الأمريكية إلى سوريا، الفصل الثاني، ص 179.



الشكل 137 سرجيلا، "المقهى" والحمام

فوقها، ولها قواعد أتيكية³⁷ ذات قوالب مستقيمة المقطع، وتيجان ذات تصاميم فريدة تختص بها عمائر شمال سوريا، ويتميز كل تاج منها بطرازه الدوري أو التوسكاني ذي القوالب البسيطة، وطبليته ذات المقطع المقعر من الأعلى والمحدب من الأسفل، وعلى جانبي كل تاج منها كتفان ضخمتان ومزدانتان بالقوالب تُحلقان تحت العنصر الجمال. وثمة طنfan على شكل هذه الأكتاف تماماً يُحلقان في أعلى الجدارين المنعطفين عن الجدارين الجانبيين لرواق المدخل. كما يتميز ساكف هذا الرواق - مثله مثل معظم السواكف في العمارة المسيحية في سوريا - بأنه يجمع بين عنصرين من العناصر الكلاسيكية المحمولة: أولهما العنصر الجمال المؤلف من شريطين وثانيهما التاج المقعر للكورنيش. هذا ولا تختلف طرز أعمدة الشرفة العلوية عن طرز الأعمدة في الرواق السفلي، بل كانت نسخة طبق الأصل عنها، ولا تزال ألواح المتراس كلها في مكانها الأصلي، وتسم بلوحاتها البسيطة الغائرة. لكن ساكف الرواق العلوي يجمع بين عنصر حمال بسيط وتاج مقعر أضخم من تاج الساكف في الرواق السفلي. وفوق كل مدخل من مدخلي الرواقين العلوي والسفلي نجفة

37 * يُقصد بها قاعدة العمود المؤلفة من تنوء مستدير وانحناء نصف دائري.



الشكل 138

يعلوها تاج مزدان بالقوالب. وكان هذا المبنى مسقوفاً بسطح جملونيّ لم تكن تتخلله أية فتحات من الحافة العليا للجملون حتى واجهة الشرفة. وهناك نافذة كبيرة متوّجة بالقوالب في الطرف الغربي من الغرفة الرئيسة. وكانت أرضية الطابق العلوي مصنوعة بالطبع من الخشب ولذلك لم تكن مدعومة بقوس حمال رئيس. ويُعتقد أن هذا المبنى كان بمثابة نزل يؤمّن وسائل الراحة والمبيت لزبائن الحمام، إلا أنه معروف اليوم بين السكان المحليين باسم المقهى.

العمارة السكنية

يعرض مخطط مدينة سرجيلا المرفق في هذا الجزء حالة معظم بيوتها السكنية، ولم نستبعد منه سوى عدد قليل من المنازل، لا سيما تلك التي كانت مدمرة بالكامل. ويلاحظ أن معظمها كان من نوع الفيلات المستقلة، وأن أغلبها إن لم يكن جميعها كان موجهاً نحو الجنوب أو الجنوب الشرقي أو الشرق. وفي كلّ منزل منها فناء أو حديقة مسوّرة، ورواق معدّ يطلُّ على الفناء، ومدخل متصل بدهليز. وكانت الفتحات التي تتخلل الطابق الأرضي في هذه المنازل قليلة وضيقة،

باستثناء تلك التي تطلّ على الفناء، فكانت مجرد فتحات للتهوية على غرار مرامي السهام الضيقة. ويتألف مخطط كلّ منزل أو فيلا فيها بشكلٍ عام من صفّ من الغرف تتوزع على طابقين وتطلّ على الفناء، ويتقدّمها رواق معمد من طابقين أيضاً، ويقطع كل غرفة من الداخل قوس حمال. وعند إحدى نهايتي صفّ الغرف هذا - أو كلتا نهايتيه - هناك غالباً ممرّ ضيق طويلاً يحتوي بيت الدرج، ولكن في بعض المنازل الأخرى بُني الدرج في الخارج، إما داخل الرواق الأمامي أو خارجه بجوار سور الفناء. وفي بعض منازل سرجيلا كان هناك أيضاً طابق ثالث يرتفع فوق قسم واحد من أقسامها أو أكثر؛ وفي بعضها الآخر هناك غرف طويلة يقطعها قوسان أو ثلاثة أقواس عرضية. كما اتصلت بعض المعاصر بالعديد من المنازل الكبيرة فيها، وكانت تتألف من غرف مستطيلة تمتد عبرها سلسلة من الأقواس العرضية، وفيها أحواض وخزانات صغيرة محفورة في جوف الصخر الحيّ. وفي معظم منازل سرجيلا تم فصل الإسطبلات عن الحجرات السكنية، ومع ذلك فقد بقيت داخل نطاق السور المحيط بحديقة الدار. وقد تم ترقيم هذه المنازل بأرقام رومانية لأجل تمييزها، ووصل عددها إلى ثمانية عشر منزلاً، لكنّ هذا العدد لا يشمل المنازل المدمرة تدميراً كاملاً؛ إذ يُقدّر العدد الإجمالي لهذه الفيلات بحوالي ثلاثين فيلا سكنية، ومع ذلك فإن هذا العدد، على حدّ تقديري، لا يمثل العدد الفعلي لبيوتها السكنية. ومن المؤكد أن كل فيلا من تلك الفيلات، أو كل كتلة من كتلها السكنية، كانت توفر سكناً لأكثر من عائلة واحدة، وذلك تماماً على غرار الكتل السكنية التي شاهدناها بين العمائر السكنية في حوران³⁸؛ إذ كانت بعض المنازل الكبيرة فيها تحتوي على ما يصل إلى ست عشرة غرفة كبيرة في كلا الطابقين، إلى جانب العديد من الحجرات الأصغر حجماً. وبعد إجراء معاينة دقيقة لتوزيع الغرف فيها - كالمطابخ وغيرها - يتضح لنا أن كلّ فيلا أو كتلة سكنية فيها كانت تؤوي ما لا يقلّ عن أربع عائلات تقريباً، في حين أنّ الفناء والمدخل الخارجي كان مشتركاً بينها. وفي بعض الأحيان كان لهذه الكتل السكنية مدخلان منفصلان، على جانبين متقابلين من الفناء. ومن الواضح أيضاً أن بعض العائلات كانت تستخدم عدداً أكبر من الغرف مقارنة مع غيرها داخل الكتلة السكنية نفسها، ويعزى ذلك إما لأن عدد أفرادها أكبر أو لأنها تتمتع بموارد وإمكانات مادية أفضل. ولكن يبقى السؤال الذي لا إجابة له: من كان يقيم فعلياً في هذه الأقسام السكنية المنفصلة داخل الكتلة الواحدة؟ أهو ربّ أسرة واحدة مع أبنائه وعائلاتهم، حيث استقلت كلّ عائلة منها في جناح خاص يضم عدداً من الغرف؟ أم أنها عدة عائلات قد لا تجمع بينها أية صلة قربي كانت قد أقامت مساكنها معاً، حول فناء مشترك؟ وثمة احتمال ثالث: وهو أن رجلاً ذا سعة من المال كان قد بنى هذا المجمع السكني وقام بتأجير أجزاء منه للآخرين ممن لم تكن لديهم المقدرة المادية

لبناء منازلهم الخاصة. وحسب التقديرات التقريبية لتعداد السكان في بلدة صغيرة مثل سرجيلا، نتوقع أن متوسط عدد العائلات المقيمة في كلّ كتلة من هذه الكتل السكنية كان يصل إلى ثلاث عائلات. وعلى فرض أن عدد هذه الكتل السكنية كان في الأصل خمساً وعشرين كتلة، وأن كل عائلة فيها كانت تتألف وسطياً من سبعة أفراد، بما في ذلك عدد الخدم وغيرهم من الأتباع، نجد أن عدد سكان سرجيلا كان يتراوح بين 500 و600 نسمة، وهو ما اعتبره تقديراً متحفظاً وهدراً للغاية يعرض عدداً أقل من الواقع، على حد تصوري.

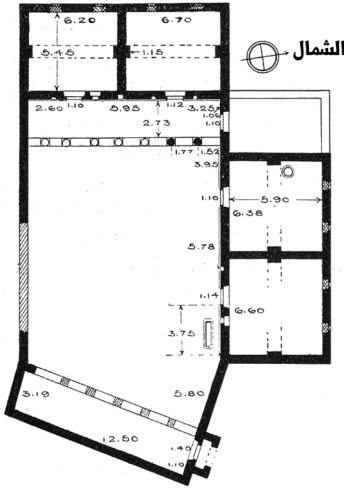
وهلّ نتطلق الآن في جولة ساحرة عبر هذه الفيلات بالترتيب، لنجري دراسة دقيقة أو تقريبية عنها، كل حسب أهميتها.

المنزل (1)

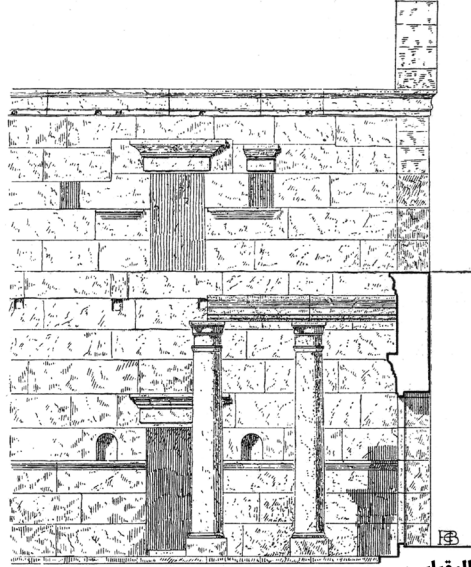
وهو منزل يتربع في الطرف الجنوبي الشرقي من سرجيلا، ويتألف من طابقين في كلّ منهما غرفتان كبيرتان، ويتقدّمهما رواق معمد من طابقين أيضاً. وما تزال جميع جدرانها قائمة في مكانها، وكذلك جميع أعمدة الرواق السفلي والذي كان مسقوفاً بألواح حجرية. إن هذا المنزل هو الوحيد في سرجيلا الذي كان مجهزاً للسكن خلال فترات متقطعة من العام لإيواء بعض السكان القادمين من البارة، وكانوا يقيمون فيه سنوياً خلال موسم حصاد القمح الذي كان يُزرع في المساحات القليلة الباقية من الأراضي المغطاة بالأتربة في بطن الوادي. وقد بنيت جدران بين أعمدة الرواق عملت على سدّ المسافات بينها، وتشكّل الألواح الحجرية فوقها سقفاً محكماً ومتراصاً. ووضعت عوارض خشبية غير مشدّبة صنعت من جذوع أشجار الزيتون امتدت بين الجدران الجانبية والأفواس الحاملة القديمة في غرفتي الطابق الأرضي، ثم أقيم فوقها سقف مكون من الأغصان والطين، ورغم أن الطابق العلوي ما يزال غير مسقوف، إلا أن العمل القليل الذي بذل في ترميم هذا المنزل الأثري كان كفيلاً بتحويل أنقاضه إلى منزل قابل للسكن مؤلف من طابق واحد. وأضيف في أحد نهايتي الرواق فرن محلي يُعرف بالتّنور.

المنزل (2)

يقع هذا المنزل بالقرب من أعلى المنحدر، ويعد من أقدم بيوت سرجيلا وأكثرها سحرًا وجمالاً. ويعرض مخطّطه (الشكل 139) فناءً مستطيلاً يمتد شرقاً وغرباً، ومنزلاً مؤلفاً من قسمين سكنيين أحدهما في النهاية الغربية من الفناء، والآخر في طرفه الشمالي. ويتألف القسم الأول منهما من طابقين وأمامه رواق من طابقين أيضاً، في حين أن القسم الثاني كان مكوناً من طابق واحد فقط وبدون رواق أمامي على الرغم من أن مساحته لم تكن أصغر من مساحة القسم الأول. وكان الطرف الشرقي من الفناء ذو شكل غير منتظم كما يظهر في الرسم، وامتد إسطبل



سرجيلا
المنزل (2)

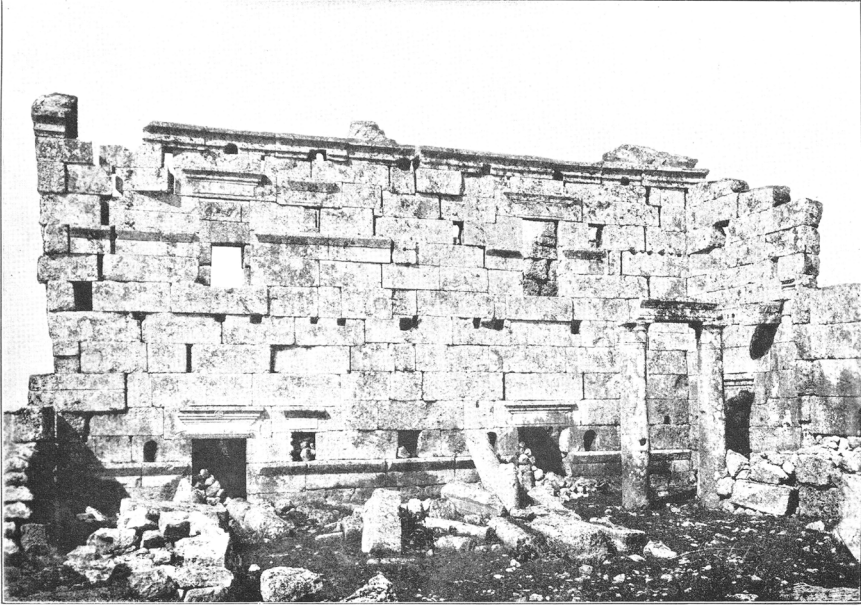


النصف الشمالي من الواجهة
في الوضع الحالي

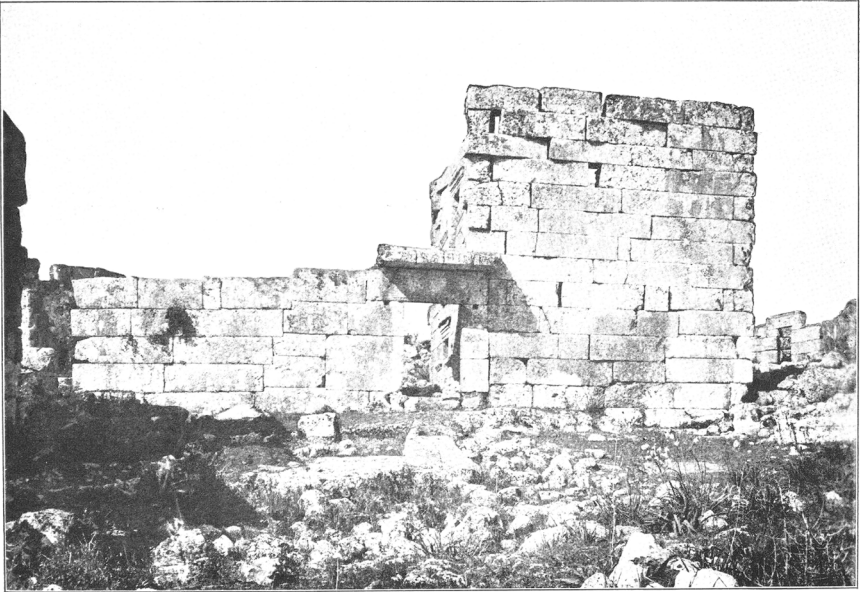
المقياس:
اسم=1م

الشكل 139

من أوله إلى آخره، وجاء مدخل الفيلا المتصل بدهليز في الزاوية الشمالية الشرقية. وهناك مدخل بديع في الطرف الشمالي من رواق القسم السكني الغربي كان يتصل إما مع دهليز أو مع غرفة أخرى من طابق واحد. ورغم أن الجدران الخارجية لهذا المنزل كانت جامدة وتفتقر إلى الزخارف والزينة بشتى أنواعها حال بقية المنازل في المنطقة، إلا أن الواجهة الشرقية لقسمه السكني الغربي ذي الرواق الأمامي تميزت بفخامتها وروعة تصاميمها. ونشاهد في (الشكل 139) أحجام عناصر هذه الواجهة وتناسق أبعادها؛ في حين توضح الصورة في (الشكل 140) مدى حفاظها على شكلها وتفصيلاتها؛ إذ بقيت جميع الجدران في القسمين السكنيين لهذا المنزل - غرب الفناء وشماله - قائمة في مكانها، وكذلك الأقواس داخل الغرف وعمودان اثنان من أعمدة الرواق. وتتمتع هذه الأعمدة بطرازها التوسكاني البسيط، وبدنها المكون من قطعة حجرية واحدة، وعليها طبلية مقطوعها مقعر من الأعلى ومحدب من الأسفل، عوضاً عن المقطع المحدب. ويزين العنصر الحمال شريطان وتاج ذو واجهة مشطوفة الحافة. كما كانت أعمدة الرواق السفلي أطول من أعمدة الرواق العلوي، وإن هذه الزيادة في الطول كانت ضرورية لرفع مستوى أرضية الشرفة فوقها إلى مستوى أرضيات الطابق العلوي القائم على الأقواس العريضة والمرتفعة في الطابق الأرضي. وكانت أعمدة الطابق العلوي بالفعل أقصر بكثير، ولكنها باتت مدمرة الآن ولم



الشكل 140 سرجيلا، المنزل (2)، الواجهة المطلة على الفناء



الشكل 141 سرجيلا، المنزل (5)، الجدار الشرقي من الخارج

يبق لها أثر. وازدانت مداخل ونوافذ طابقي هذا القسم السكني، والقسم السكني الآخر شمال الفناء بتيجان في كلٍّ منها شريط عريض مسطح ونافر تعلوه حلية مزدانة بقوالب متنوعة يختلف مقطعها من مدخل لآخر ومن نافذة لأخرى. وثمة قالب سفلي - مؤلف من شريط مسطح مشطوف الحافة - يمتد على شكل طوق فوق المدماك الثالث أسفل الجدران، وعند هذا المستوى نفسه حفرت كوّات صغيرة على شكل المحراب على جانبي كل مدخل من المداخل، وكانت خالية من الزخارف، وتعد هذه الكوات من السمات الزخرفية الشائعة بين منازل شمال سوريا. إن هذه الأعمدة والعنصر الجمال وتيجان الأبواب والطوق الزخرفي السفلي كانت جميعها شبيهة في نمطها وتصاميمها بتفاصيل مماثلة وجدت في منازل عليها نقوش مؤرخة ترجع إلى النصف الثاني من القرن الرابع للميلاد.

المنزلان (4 و 5)

يشكّل هذان المنزلان معاً كتلة سكنية واحدة غير منتظمة الشكل ولكلٍّ منهما فناءه الخاص رغم أنهما يشتركان بمدخل واحد. ويتألف المنزل (5) من طابقين يتقدمهما رواق معمد بارتفاع طابقين أيضاً ومن غرفتين في كلِّ طابق؛ أما المنزل (4) فتمتد ثلاث غرف بعلو طابقين في الطرف الشمالي من فناءه، ويتقدمها أيضاً رواق معمد، وهناك أنقاض لصفٍّ آخر من الغرف على جانب آخر من فناءه. ويبدو الجدار الشرقي للمنزل (5) والمعروض في صورة (الشكل 141) مصمماً لا فرجة فيه سوى من البوابة التي تعلوها مظلة حجرية مصنوعة من أطناف تبرز من داخل الجدار.

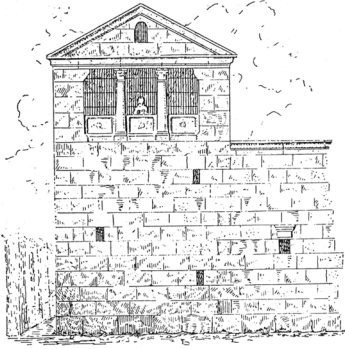
المنزل (7)

لقد ورد ذكر هذا المنزل المجاور للكنيسة في معرض حديثنا عنها سابقاً، وقنا بعرض مخططه وجزءٍ من واجهته مع رسومات الكنيسة (الشكل 132). وقد بني في قطعة أرض منخفضة غربي الكنيسة وعلى مستوى أسفل منها، وحفرت آخر غرفة فيه من جهة الشرق، وكذلك النهاية الشرقية من فناءه في جوف الصخر الجبلي. ويتألف مخططه من ثلاث غرف كبيرة من طابقين تمتد شمال الفناء، ثم يأتي ممر ضيق متصل بدهليز في الطرف الغربي من غرفه، وبعده تأتي غرفة ضيقة وطويلة. وهناك صورة فوتوغرافية³⁹ في منشورات البعثة الأمريكية إلى سوريا تعرض بيت الدرج الخارجي والذي يصعد من خلاله إلى الغرف العلوية فوق الممر. في الواقع، لم يبق في هذا المنزل ما يشير إلى وجود رواق كان يمتد أمامه، وعلى الرغم من وجود مداخل في الجدار الأمامي للطابق العلوي، إلا أنه ليس هناك تجاويف لغرس العوارض الخشبية في هذا الجدار

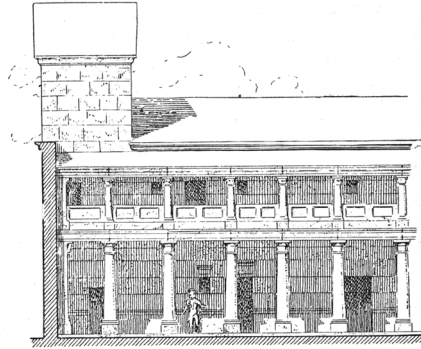
والتي من شأنها أن تحمل الشرفة العلوية. أما بقية غرف الطابق العلوي فلم يكن هناك وسيلة للوصول إليها سوى عن طريق الدرج عند نهاية صف الغرف، وعبر مداخل تؤدي من غرفة إلى أخرى. ولم يكن المنزل (7) المنزل الوحيد في سرجيلا الذي كان بدون رواق أمامي رغم وجود مداخل في طابقه العلوي، فقد وجدنا فيها بعض المنازل الأخرى المشابهة، كانت المداخل العلوية في بعضها تفضي إلى شرفات ارتكزت على أطناف مثبتة داخل الجدار، في حين بقيت المداخل العلوية في منازل أخرى في انتظار إقامة شرفات لها، والتي لم تبني لسبب من الأسباب. ونستدل من شكل تيجان الأبواب والنوافذ في هذا المنزل، والتي قننا بعرض واحد منها في الرسم المرفق للكنيسة (الشكل 132)، أن هذا المنزل كان قد بني في نهاية القرن الرابع للميلاد.

المنزل (9)

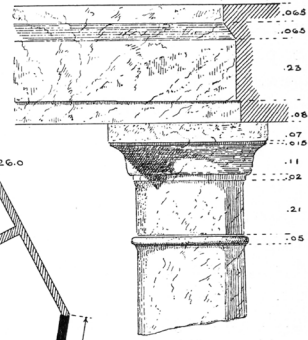
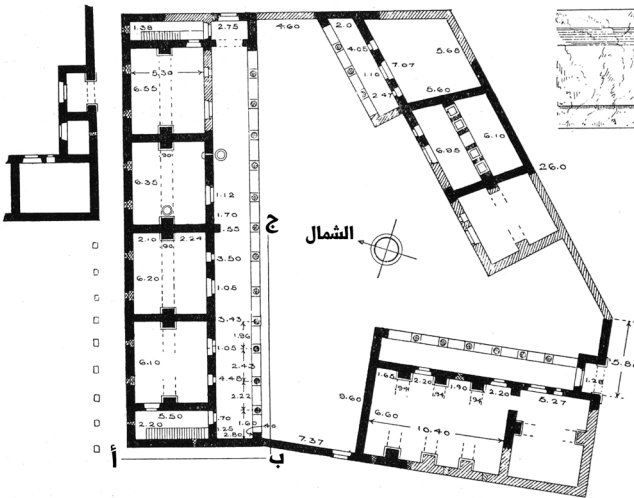
إنه المنزل الأكثر اتساعاً بين فيلات سرجيلا، وله مخطط غير منتظم (الشكل 142). ففي طرفه الشمالي صف من أربع غرف كبيرة ومقنطرة، يحدها من كلا الطرفين بهوان ضيقان مخصصان لبيت الدرج، وأمام الغرف رواق طويل من طابقين يصل بين جانبي الفناء، مع دهليز صغير في نهايته الشرقية. وبالانتقال إلى الطرف الغربي من هذه الفيلا نجد أن جدارها الغربي ليس متعامداً تماماً مع جدارها الشمالي، وإنما يخرف قليلاً عنه، وفي زاويتها الجنوبية الغربية منزل آخر يتكون من غرفة مستطيلة وكبيرة أبعادها (10.40 م × 6.60 م) تقطعها ثلاثة أقواس عرضية، وغرفة أخرى مساحتها عادية يقطعها قوس واحد. وأمام هذا القسم من المبنى كان هناك رواق ذو أعمدة كورنثية وفي نهايته الجنوبية مدخل متصل بدელიز. أما في الطرف الجنوبي من الفناء، والذي يمتد حتى الزاوية المنفرجة في الجنوب الشرقي من هذه الفيلا، فهناك قسم سكني ثالث يتألف من غرفتين كبيرتين بينهما إسطلب؛ وثمة رواق قصير كان يمتد أمام الغرفة الشرقية منه فقط. وبالعودة إلى المنزل الشمالي من هذه الفيلا فقد كان بعلو طابقين، إلا أن بهو الدرج في طرفه الغربي، وربما ذاك في طرفه الشرقي أيضاً، كان يبرز بارتفاع ثلاثة طوابق ليشكل شرفة مكشوفة عند نهاية المبنى (الشكل 142، النهاية الغربية). وكان المبنى الجنوبي الغربي أيضاً مؤلفاً من طابقين وكذلك الرواق الذي يتقدمه. وبالمثل كان المبنى الجنوبي بعلو طابقين، في حين كانت الغرفة ذات الشكل غير المنتظم عند زاويته المنفرجة بعلو ثلاثة طوابق. ومن الصعب معرفة كم طابق كان في الرواق الأمامي لهذا القسم، إلا أن حجم الحطام المتناثر أمامه يشير إلى أنه كان بارتفاع ثلاثة طوابق. وبالنظر إلى ما بقي من بنية هذه الفيلا، نجد أن المبنى الشمالي فيها حافظ على جدران طابقه الأرضي بالكامل مع أقواسه الداخلية، والأعمدة الأربعة الأخيرة من رواقه من جهة الغرب؛ كما حافظت غرفته الغربية على جزء من جدار طابقه العلوي، في حين بقيت الحجرة الغربية الضيقة لبيت الدرج محافظة على طابقين بحالة سليمة مع نصف شرفة طابقها الثالث.



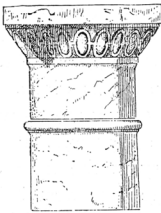
النهاية الغربية عند المقطع أ-ب
بعد الترميم



النصف الغربي من الواجهة
عند المقطع ب-ج بعد الترميم

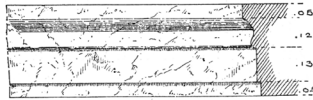


طراز
صف الأعمدة
السفلي

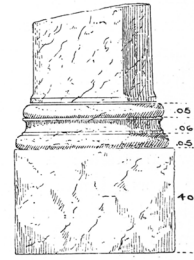


التاج

سرجيلا المنزل (9)



العنصر الحمال في الرواق العلوي

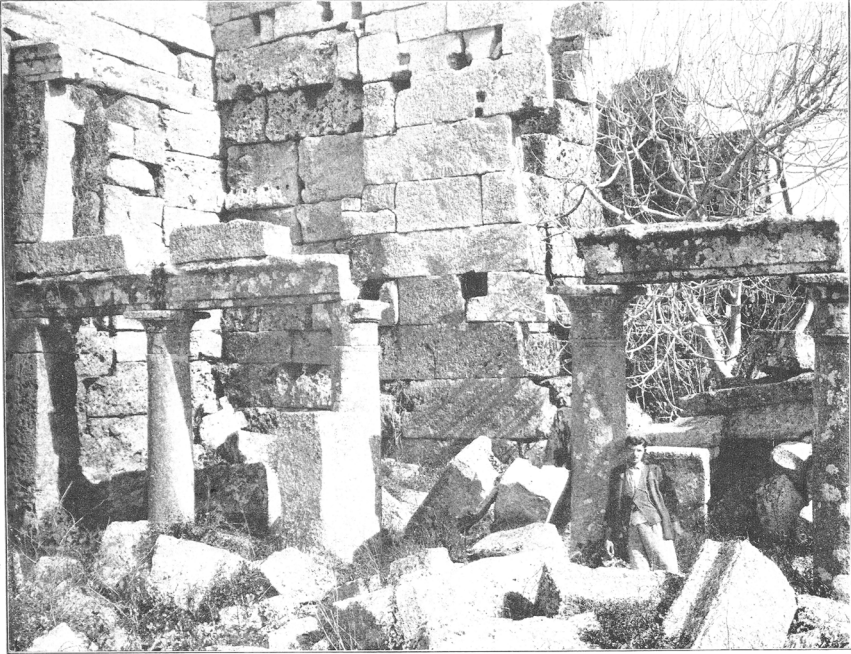


طراز

ولا تزال أعمدة وألواح درابزين هذه الشرفة ملقاةً في الطابق الأرضي من بهو الدرج. وبذلك فإن الرسم الترميمي يعرض موقع هذه الأعمدة والألواح مع أبعادها بدقة متناهية لا تدع أي مجال للشك. إن هذا المنزل الطويل كان بتصوري مؤلفاً من قسمين سكنيين، في الطابق الأرضي في كُلِّ منهما غرفتان ودرج خاص، وتتصل مع بعضها البعض بمدخل. لكن لم يكن هناك مدخل يصل بين هذين القسمين، حتى أن الرواق الخارجي يبدو وكأنه كان منقسماً عملياً إلى نصفين بواسطة جدار أو دعامة بارزة. وكانت الغرفة الثانية من الطرف الشرقي فيه خالية من الأنقاض، وفيها حوض مجري كبير متقن الصنع موجود عند أحد طرفي قوسها، وحوض آخر مثبت عند جدارها الجنوبي تحت فتحة كبيرة تنحدر بشكل مائل نحو صهريج يتوضع خارج الجدار مباشرة. وتظهر تفاصيل الرواق في الرسم التوضيحي، ويمكن أن نشاهدها في مكانها الأصلي في صورة (الشكل 143). وتنتمي هذه التفاصيل إلى فترة زمنية لاحقة لتاريخ بناء المنزل (2) بفترة وجيزة، ويمكن أن تؤرخها إلى نهاية القرن الرابع للميلاد. أما القسمان السكنيان الآخريان في هذه الفيلا فقد تعرضا لدمار هائل، على الرغم من أن الغرفة الكبيرة ذات الأقواس العرضية، في القسم الجنوبي الغربي من الفيلا، ما تزال تحافظ على أحد أقواسها، وأن الغرفة التي تشغل الزاوية الجنوبية الشرقية للقسم السكني الآخر لا تزال تحتفظ بأحد جدرانها بارتفاع ثلاثة طوابق، مع نوافذه وكورنيشه العلوي الأنيق. ومن التفاصيل الباقية هذه، أعتقد أن هذين القسمين السكنيين كانا قد أقيما بعد قرن أو أكثر من تاريخ بناء القسم الشمالي في هذه الفيلا.

المنزلان (10 و 11)

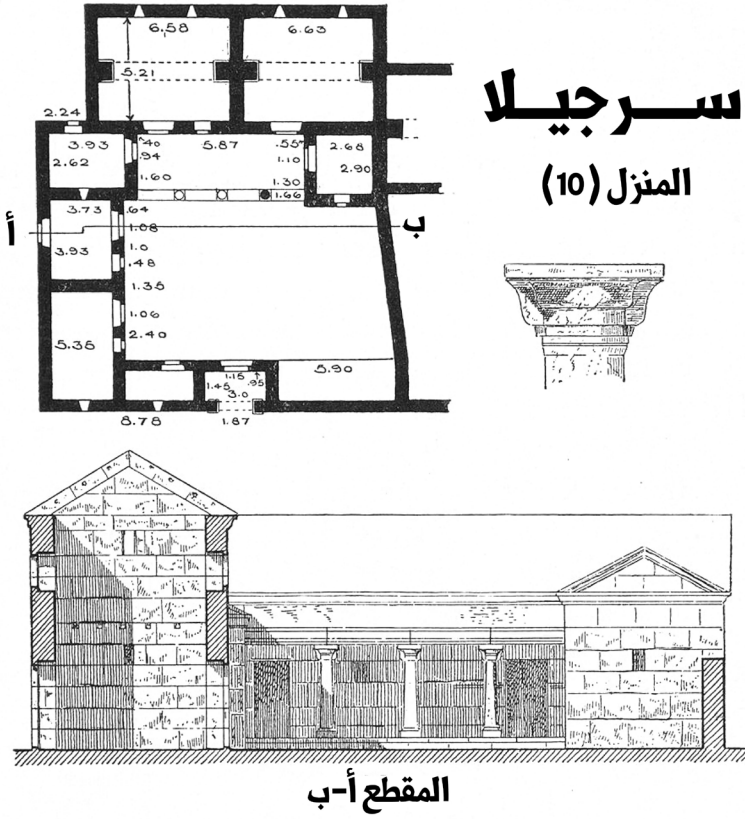
يصنّف هذان المنزلان تحت خانة المنازل الصغيرة في سرجيلا؛ ومع ذلك يعد المنزل (10) فيلا صغيرة متكاملة بحد ذاتها (الشكل 144) تتألف من فناء صغير تحيط به غرف من جهته الشمالية والغربية ونصف جهته الجنوبية. ففي شمال الفناء غرفتان كبيرتان مقنطرتان من طابق واحد فقط، لهما رواق أمامي ينتهي بغرفة مربعة من جهته الشرقية (الشكل 145). وإلى الغرب من هذا الفناء ثلاث غرف تفضي إحداها إلى النهاية الغربية من رواق القسم السكني الشمالي، في حين تشكل الغرفة الوسطى نوعاً من أنواع المداخل البرجية وتعلوها غرفة لإقامة الحاجب. أما في الجهة الجنوبية من الفناء، فلا يوجد سوى مدخل متصل بدلهيز يقع بمحاذاة غرفة ضيقة صغيرة. وتسم تفاصيل هذا المنزل ببساطتها الشديدة، وتتمتع أعمدة رواقها بطراز مماثل لأعمدة رواق "المقهى"، وما يزال أحد هذه الأعمدة قائماً في مكانه الأصلي (الشكل 144). ومن المرجح أن تاريخ المنزل (10) والمنزل (11) يرجع إلى الفترة الزمنية ذاتها والتي تقدر بالربع الأخير من القرن الخامس للميلاد.



الشكل 143 سرجيلا، المنزل (9)، الزاوية الشمالية الغربية من الفناء



الشكل 144 سرجيلا، المنزل (10)، الزاوية الشمالية الغربية من الفناء



الشكل 145

المنزل (8)

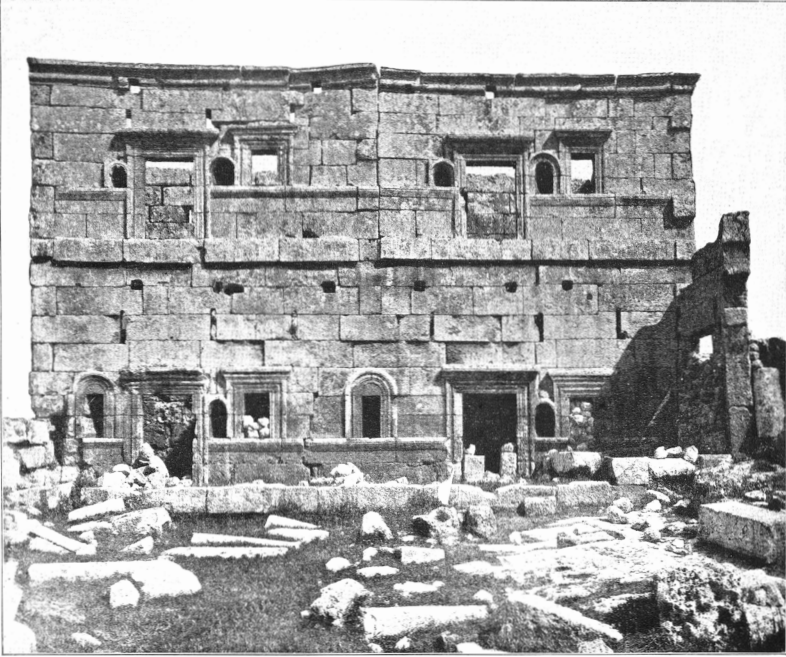
ليست هذه المرة الأولى التي يُنشر فيها عن هذا المنزل، فقد عُرض بدايةً في إحدى رسومات⁴⁰ إم دي فوجيه التوضيحية، ثم ظهرت له صورة في منشورات البعثة الأمريكية إلى سوريا⁴¹. إنه بالفعل درّة بديعة من درر العمائر السكنية في سوريا، ويتميز بطراز يختلف إلى حد ما عن طرز المنازل الموصوفة أعلاه، كما يرجع إلى حقبة زمنية لاحقة. وتعرض خارطة سرجيلا مخططه العام، حيث يتألف من فناء طويل ينتهي في طرفه الشمالي بغرفتين على علو طابقين ولهما رواق أمامي من طابقين أيضًا. ونشاهد من الصورة الحديثة التي تم التقاطها لهذا المنزل (الشكل 146) أنه حافظ على شكله بحالة ممتازة، حيث لم يتدمر فيه سوى سقفه ورواقه. وحينما قَدِم إم دي

40 سوريا الوسطى، الرسم التوضيحي رقم 33.

41 منشورات البعثة الأثرية الأمريكية إلى سوريا، الفصل الثاني، ص 258.

فوجيه لزيارة هذا الموقع، كانت ثلاثة من أعمدة الرواق السفلي ما تزال قائمة في مكانها مع عمودين من أعمدة الرواق العلوي فوقها⁴². ومن اللافت للنظر هنا أن الرواق السفلي فيه لم يكن يختلف أبداً عن طراز رواق "المقهى"، في حين أن رواقه العلوي كان ذو طراز كورنثي بسيط. وإذا ما تمت مقارنة واجهة هذا المنزل المعروضة في (الشكل 146) مع واجهة المنزل (2) الواردة في (الشكل 140)، فإن الاختلاف بينهما من حيث الطراز وأسلوب البناء سيتجلى بكل وضوح. فقد كانت الارتفاعات الكبيرة، والمساحات الواسعة بين مداخل الطابقين، والناجمة عن علو الأقواس الداخلية، من السمات المشتركة في كلا المبنيين، كما كان كل من الشريط الزخرفي الذي يزين الجدران من الأسفل، والطوق البارز الفاصل بين الطابقين، والكورنيش التاجي متطابق تقريباً في كلا المبنيين أيضاً؛ إلا أن فتحات التهوية الشبيهة بمرامي السهام الضيقة إلا من قممها المستديرة تعد من السمات الجديدة والمبتكرة في هذا المنزل، كما أن زخارف المداخل والنوافذ والكوات الشبيهة بالحاربي تعلن عن بزوغ نمط معماري جديد؛ حيث يزدان كل مدخل ونافذة فيه بإطارات من القوالب ذات المقاطع الكلاسيكية الخالصة، ويعلو كل مدخل ونافذة أيضاً تاج مزدان بالقوالب؛ ونلاحظ أن عدد الكوات الشبيهة بالحاربي مضاعف هنا، وتزدان الكوات المعقودة بمقود نصف دائرية بنصف قبة محارية وبمجموعة من القوالب الغائرة؛ في حين تتوج الكوات المستطيلة قوالب معقودة ازدانت كواتها الهلالية بالنقوش (انظر التفاصيل الواردة في الرسم التوضيحي رقم 33 في كتاب "سوريا الوسطى"). لقد تم استخدام مثل هذه القوالب في النوافذ الخارجية على نطاق محدود في حمام سرجيلا والذي يرجع إلى العام 472 للميلاد، كما اشتهرت في مباني شمال سوريا خلال القرن السادس. وتظهر التيجان ذات الأكتاف المحلقة في "المقهى"، والذي يرجع بلا شك إلى الفترة الزمنية نفسها تقريباً التي بني فيها الحمام. ولهذا أعتقد أن المنزل (8) هذا يرجع تاريخه إلى فترة وجيزة بعد تاريخ بناء الحمام، أي في الربع الأخير من القرن الخامس أو في مطلع القرن السادس للميلاد.

هذا ويعد المنزل (12) من المنازل الأقل أهمية بين منازل سرجيلا وقد طاله دمار كبير. أما المنزل (13) فهو عبارة عن صف طويل من ست غرف مقنطرة بارتفاع طابق واحد. ويبدو أن كل غرفة منها كانت تشكل منزلاً مستقلاً، وكان يمتد أمامها رواق طويل يبدو أنه كان يطل مباشرة على الشارع. وكان هذا المبنى على الأرجح عبارة عن صف من المحال التجارية، وإذا كان الأمر فعلاً كذلك، فإن هذه المتاجر كانت المركز الوحيد للتسوق في سرجيلا.



الشكل 146 سرجيلا، المنزل (8)، الواجهة الجنوبية



الشكل 147 سرجيلا، المنزلان (17و18) من الجنوب

وبالانتقال إلى المنزل (14) فهو من منازل سرجيلا المثيرة للاهتمام لاسيما بسبب درجه البارز من داخل الجدار، والذي لا يختلف في طريقة بنائه هذه عن الدرج في منازل حوران المؤلفة من طابقين. أما المنزلان (15 و16) فلم يكن فيهما ما يميزهما عن بقية منازل سرجيلا ومن المؤسف أنهما تعرضا لنسبة دمار كبيرة، وعلى النقيض من هذين المنزلين، يتمتع المنزلان (17 و18) بأهمية خاصة وهما جديران بالاهتمام، وقد أطلق عليهما إم دي فوجيه اسم المنزلين (أ) و (ب) في منشوراته⁴³، كما عُرض مخططٌ لكليهما بصورةٌ لأحدهما في منشورات البعثة الأمريكية إلى سوريا⁴⁴. لكنني لن أرفق هنا أي مخطط خاص بهما وإنما سأكتفي بالإشارة إلى مخططهما ضمن خارطة سرجيلا، ورغم أنه مخطط ذو مقياس صغير إلا أن حدوده كافية لتحقيق الغاية المرجوة. ولدينا هنا منزلان قائمان جنباً إلى جنب، أمام كل واحد منهما باحة مسورة كبيرة ذات شكل غير منتظم. ويتألف المنزل (17) من غرفتين بعلو طابقين، لهما رواق أمامي فوقه شرفة، وثمة دهليز مقنطر في طرفه الغربي؛ ولا يختلف مخطط المنزل (18) عن مخطط سابقه، إلا أن دهليزه يقع في الطرف المقابل، وأضيف إليه بهو مسورٌ خصص لبيت الدرج في النهاية الغربية⁴⁵ من الرواق. وعلى الجانب الشرقي من فناء المنزل (18) تتناثر أنقاض إسطبل فسيح كان يعلوه عدد من الغرف. وقد تدمر الجدار الفاصل بين باحتي هذين المنزلين، الأمر الذي سمح بمشاهدة واجهتهما معاً في صورة (الشكل 147)، والتي تعرض الوضع الحالي لهذين المنزلين. وما تزال جدران المنزل (17) قائمة مع عمودين من رواقه، في حين بقي المنزل (18) بأكمله محفوظاً بشكل جيد، كما احتفظ برواقه السفلي بالكامل مع عمودين من شرفته العلوية. ونشاهد هنا أن الرواق السفلي في كلا المنزلين كان متشابهاً فعلياً، على الرغم من أن مستوى أحدهما أدنى من الآخر؛ وتظهر هذه التفاصيل بشكلٍ جليٍّ في الرسم التوضيحي⁴⁶ القائم على القياسات الذي قدمه إم دي فوجيه لهذين المنزلين. ويتمتع هذان الرواقان بطراز توسكاني كما قد شهدنا مثله سابقاً في رواق المنزل (2)؛ بينما تتمتع أعمدة الشرفة العلوية بطراز كورنثي وكانت ذات حجم أصغر وارتفاع أقل من أعمدة الرواق تحتهما. ورغم تشابه الرواقين في كلا المنزلين إلا أن واجهة كليهما تختلف تمام الاختلاف عن الآخر، فقد كانت واجهة المنزل (18) شبيهة بطراز المنزل (2)، وتسم بأبواب ونوافذ ذات تيجان بسيطة؛ بينما كانت واجهة الطابق العلوي في المنزل (17) شبيهة بطراز المنزل (8) الذي تزدان أبوابه ونوافذه بإطارات من القوالب. ولا يساورني أدنى شك في أن الطابق

43 سوريا الوسطى، الرسمان التوضيحيان ذوا الرقمين 30 و31 والنص ص 91.

44 منشورات البعثة الأثرية الأمريكية إلى سوريا، الفصل الثاني، ص 124.

45 * الصواب هو النهاية الشرقية وذلك بناءً على المخطط.

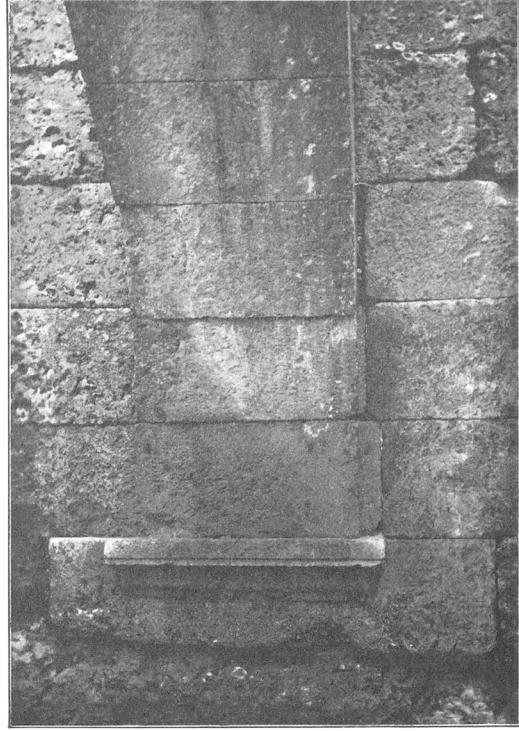
46 سوريا الوسطى، الرسم التوضيحي رقم 30.



الشكل 148 سرجيلا، دهليز المنزل (7)

العلوي في هذا المنزل كان قد أعيد بناؤه في فترة لاحقة لتاريخ إقامة المبنى الأصلي، إلا إذا كان المنزل الثاني - والذي تشير جميع تفاصيله إلى أنه أضيف إلى المنزل الأول - قد صُمم في فترة انتقالية بين هذين الطرازين. وبناءً عليه، يمكنني وبكل ثقة تصنيف المنزل (18) مع المباني التي يرجع تاريخها إلى السنوات الأخيرة من القرن الرابع للميلاد.

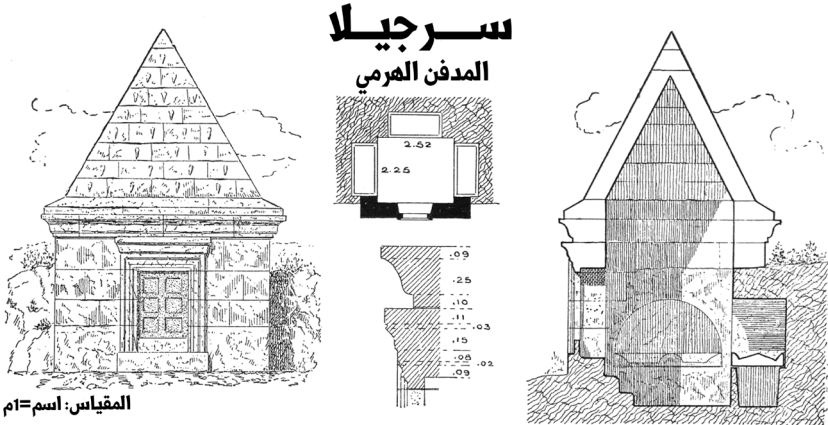
أثناء استعراضنا لمنازل سرجيلا هذه، تطرّقنا إلى تفاصيل عدة ربما تستحق منا وصفاً أكثر دقة. حيث لم تظهر الدهاليز المقنطرة الموجودة في كل منزلٍ من منازل سرجيلا، على سبيل المثال، في الرسومات التوضيحية ولا في الصور الفوتوغرافية، لا سيما أن العديد منها كان في حالة خراب كبير. ولذلك فقد وقع اختياري هنا على دهليز المنزل (7)، الذي لا يزال يحافظ على شكله بحالة ممتازة، كعينة لدراسة هذه الدهاليز ولتسليط المزيد من الضوء على تفاصيلها. ويظهر مخططه بوضوح في (الشكل 132)، كما يمكننا مشاهدة شكله من الخارج في (الشكل 148). حيث إن مدخله الخارجي هو عبارة عن قوس يزينه إطار معقود من القوالب محمول على دعائم



الشكل 149 سرجيلا، القوس الجمال في المنزل (8)

ذات تيجان مزدانة بالقوالب أيضاً؛ في حين أن المدخل الذي يتوسطه مستطيل الشكل، مما يشير إلى احتمال وجود باب كان يغلقه، أما مدخله من الداخل فهو عبارة عن قوس آخر يفضي إلى الفناء. ويمتد فوق قوسه الخارجي مدمك مجري ضيق وبارز يظهر بوضوح في الصورة، وهو عبارة عن نهايات البلاطات الحجرية التي تشكل سقف الدهليز. وبعد الدخول من القوس الخارجي نجد في داخله مقاعد على كلا الجانبين.

وبالإضافة إلى الدهاليز هذه، لا بد لنا من التوسع أيضاً في وصف الأقواس الجمالة، فقد كان كل قوس منها ذا شكل نصف دائري. ويتراوح عرض أسطحها السفلية بين 75 و95 سم. ولقد لجأت إلى استخدام مصطلح "القوس الجمال" هنا لأن هذه الأقواس تنوب عن الجائز الرئيس الذي من شأنه دعم المبنى. وكان بعض هذه الأقواس ينبثق من دعائم تتميز بشدة بروزها عن الجدار، في حين كان السطح السفلي لبعضها الآخر مستوياً مع سطح الجدار عند نقطة انطلاقة القوس، وفي هذه الحالة كان القالب الذي يزين رجل العقد ينوب عن الدعامة، كما هو موضح في المنزل (8) في (الشكل 149). وإن هذا التصميم من شأنه توفير مساحة أكبر داخل الغرف.



المقياس: اسم=1م

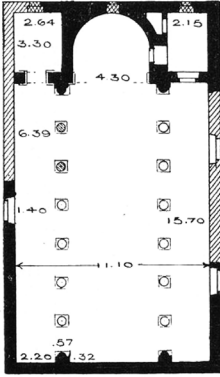
الشكل 150

العمارة الجنائزية

لا تتمتع جميع المدافن في سرجيلا بأهمية كبيرة، إلا أن إم دي فوجيه⁴⁷ كان قد اختار أجمل مدفن فيها لوصفه ضمن منشوراته، كما تظهر صورة لهذا المدفن في منشورات البعثة الأمريكية إلى سوريا⁴⁸، وسأتطرق هنا إلى ذكر هذا المدفن نفسه بشكل عابر فقط؛ فهو عبارة عن ضريح صغير aedicula أقيم فوق قبر محفور في الصخر يحتضن اثنين من اللحود المعقودة arcosolia. وبقي هيكله الصغير هذا سليماً بالكامل حتى أنه ما يزال يحتفظ بالبلاطات الحجرية الرقيقة التي تشكل سقفه. وبما أننا أتينا مسبقاً على ذكر مقبرة سرجيلا ونواويسها القائمة بحذاتها، فلا يسعنا الآن إلا أن نذكر المدفن الهرمي الأثري الذي لا يبعد كثيراً عن المنازل الأخيرة في الطرف الجنوبي الغربي من البلدة. ويتكون هذا المدفن من غرفة مربعة صغيرة تحت جزء منها داخل الجرف الصخري الصلب (الشكل 150). وبذلك كانت واجهة هذا المدفن الجزء الوحيد فيه المصنوع من الحجر؛ أما لحوده المعقودة الموزعة على جوانبه الثلاثة الأخرى فقد نحتت داخل الصخر الحي. وانتصب فوق هذه البنية التحتية هرم حجري مجوف. ويبدو هذا المدفن من الأمام شبيهاً بالمدافن المكعبة ذات الأسطح الهرمية الرائجة في سوريا، أما من الخلف فكان ببساطة يبدو على شكل الهرم. لقد انهار هذا السطح الهرمي الآن، ولكن تم اكتشاف زاويته وبعض تفاصيله الأخرى بين الأنقاض.

47 سوريا الوسطى، الرسم التوضيحي رقم 85.

48 منشورات البعثة الأثرية الأمريكية إلى سوريا، الفصل الثاني، ص 250.



دلوزة الكنيسة

الشكل 151

46 دلوزة

اتخذت بعض العائلات من أهل المنطقة آثار بلدة دلوزة كموطن لهم فأقاموا مساكنهم المتواضعة في أكاف مبانيها القديمة تاركين بقية معالمها الأثرية الأعظم شأنًا ترقد بسكينة وأمان. ولا تختلف هذه المدينة الأثرية كثيرًا عن سرجيلا، ففيها كنيسة صغيرة وعدد من الفيلات الكبيرة، إضافة إلى بضعة منازل توزعت على طول الشوارع الضيقة لتشكل مجموعها نواة البلدة. وفيها فيلا تعد التحفة الأبرز والأروع بين جميع الفيلات التي شاهدناها في سوريا.

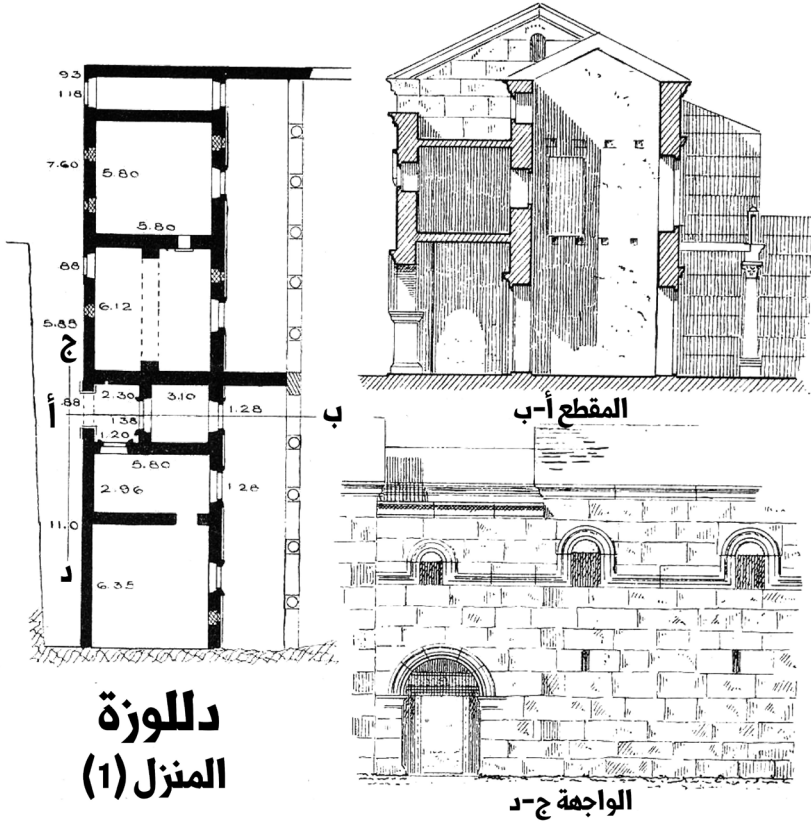
الكنيسة

كنيسة دلوزة واحدة من الكائس السورية التي تتمتع ببساطة شكلها، وترجع في الربع الجنوبي الغربي من المدينة؛ ولقد تعرضت لدمار كبير لم يسلم من برائته سوى جزء من الحنية وجزء آخر من غرفة الشماسة، مع قسم صغير من جدار الصحن. إلا أن دمارها هذا كان من فعل الكوارث الطبيعية، وبالتالي فقد بقيت جميع تفاصيلها ملقاة كما هي بدون أن تمسها يد الإنسان، الأمر الذي ساعدنا على رسم مخططها الأفقي بالكامل. وثمة شبه كبير بين مخططها (الشكل 151) ومخطط كنيسة سرجيلا، باستثناء افتقارها إلى ما يشبه الجناح المستعرض؛ حيث إن أبعاد الكنيستين تكاد تكون متطابقة، والنجفات المعقودة متشابهة، وكذلك الأعمدة المتصلة بالجدار

على جانبي الحنية وعند النهايتين الغربيتين من بائكتي الصحن. ومن هنا تبدو هذه الكنيسة وكأنها تنتمي إلى الحقبة نفسها التي تنتمي إليها كنيسة سرجيلا، وبذلك أرح أنها ترجع إلى حوالي منتصف القرن الرابع للميلاد.

العمارة السكنية

على بعد حوالي 13 متراً إلى الشرق من الكنيسة ينتصب منزلان من المنازل "المدنية"، وأقصد بذلك المنازل التي تخضع لمخطط تنظيمي يأخذ بالحسبان توزيع الشوارع والكل السكنية الأخرى ضمن نسيج عمراني متكامل. ويمتد شارع ضيق خلف هذا التجمع السكني، أي على طول جانبه الشمالي، وينتهي بطريق مسدود عند النهاية الغربية من صف غرفه. ويتكون كل منزل فيه من غرفتين وممر في الطابق الأرضي (الشكل 152). ويتجه هذان المنزلان نحو الجنوب، وكان لهما رواق أمامي من طابق واحد فقط. ويحتوي المنزل الغربي منهما على غرفة كبيرة تشغل نهايته الغربية، وأخرى ضيقة وطويلة تتصل بدورها مع الممر الذي يتألف من قسمين: دهليز مقنطر يفضي إلى الشارع (الشكل 152) وحجرة مربعة تؤدي إلى الفناء. من المدهل حقاً كيف بقي هذا التجمع السكني محافظاً على شكله الأصلي، كما أن دهليزه تحفة من التحف الخالدة في المنطقة، فهو مسقوف ببلاطات حجرية، أقيمت عليها حجرة مخصصة لإقامة الحاجب والتي سقفت بدورها ببلاطات من الحجر أيضاً (انظر إلى المقطع في الشكل 152). وهناك نافذة صغيرة في هذه الحجرة فوق قوس المدخل مباشرة، وحفرة في أرضيتها الحجرية تتصل بأخدود محفور في الجدار الشرقي للدهليز. وربما كان هذا الأخدود جزءاً من آلية ما وضعت لفتح الباب من الأعلى. أما المنزل الآخر فيحتوي على غرفة كبيرة مقنطرة تتوضع بجانب الممر المتصل بالدهليز للمنزل المجاور، وغرفة كبيرة أخرى بدون قوس حمال، وممر ضيق يشغل الطرف الشرقي من هذا المنزل. والمدهل هنا حقاً أن هذين المنزلين يتمتعان ببيض من الزخارف بشكل لم نألفه من قبل في العمائر السكنية؛ حيث يظهر في الجدار الشمالي مدماك بارز مزدان بالقوالب يمتد عند مستوى نوافذ الطابق العلوي، ورغم أن جميع هذه النوافذ مستطيلة الشكل، إلا أن هذا المدماك البارز يلتف حولها لبشكل عقوداً نصف دائرية تتوج قممها. أما الدهليز فيزخر قوسه بمجموعة متنوعة من القوالب الغائرة، وثمة قوالب إطارات عريضة تزين المدخلين في داخله وفوق كل مدخل تاج منقوش بزخارف غنية من كرمة العنب. كما تتمتع جميع مداخل ونوافذ الطابق الأرضي المطلة على الفناء بتيجان وإطارات من القوالب، وكذلك ازدانت مداخل الطابق العلوي التي تفضي إلى سطح الرواق بتيجان وقوالب ماثلة. وهكذا تتألق تصاميم هذا التجمع السكني وتعد من التصاميم الأجل



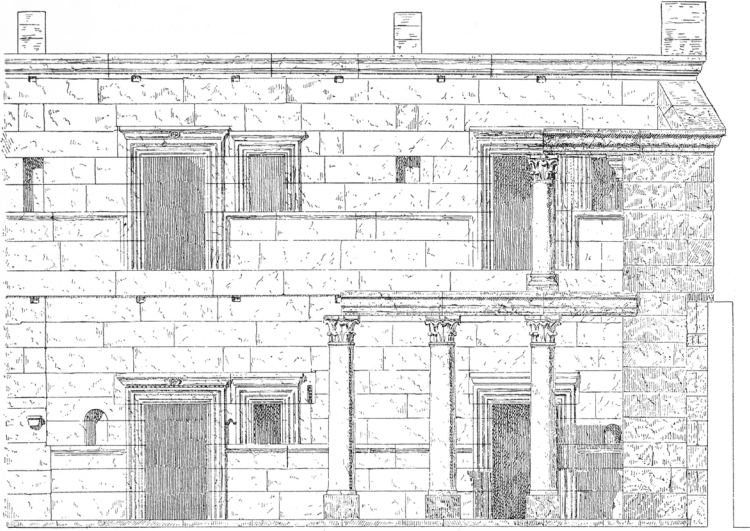
دلوزة المنزل (1)

الشكل 152

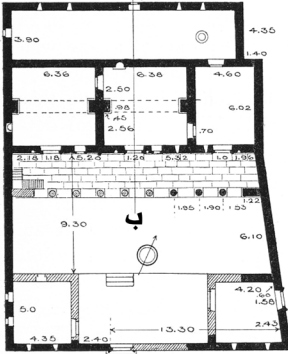
في البلاد وأحدثها طرازاً، ومن المرجح أنه يندرج بين الصروح اللاحقة التي ترقى إلى القرن الخامس للميلاد. ومن الجدير بالذكر أن إم دي فوجيه كان قد قدم رسماً توضيحياً⁴⁹ واحداً أرفق فيه رسماً منظورياً للواجهة الشمالية من هذا المنزل، ومخططاً للمنزل (2) الذي سيرد ذكره بعد هذا المنزل مباشرة.

إن المنزل الذي سأطلق عليه اسم المنزل (2) هو في رأيي المنزل الأروع في سوريا قاطبة، ويعد بالفعل صرح في منقطع النظير بين المنازل الأثرية الأخرى، وتتجلى روعته ببساطته وأصالته، من غير لوحات فسيفسائية ترصع أرضياته ولا زخارف ملونة تزهبها جدرانها. وهو عبارة عن فيلا كبيرة بحسب مخططه الظاهر في (الشكل 153)، ويبدو أنه صُمم لاستيعاب أسرة واحدة. وباحته

دالوزة



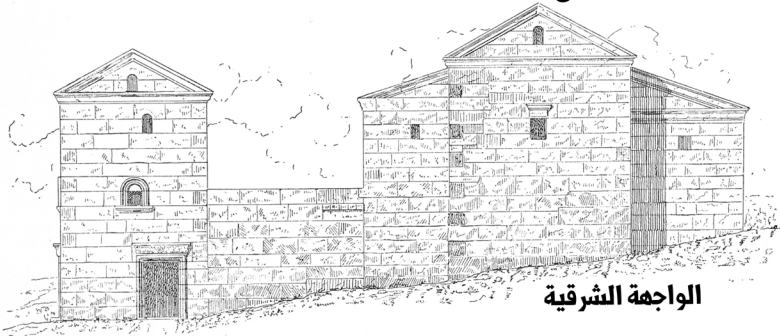
المقياس: اسم=1م الجزء الشرقي من الواجهة في الوضع الحالي أ



دالوزة المنزل (2)



المقطع أ-ب



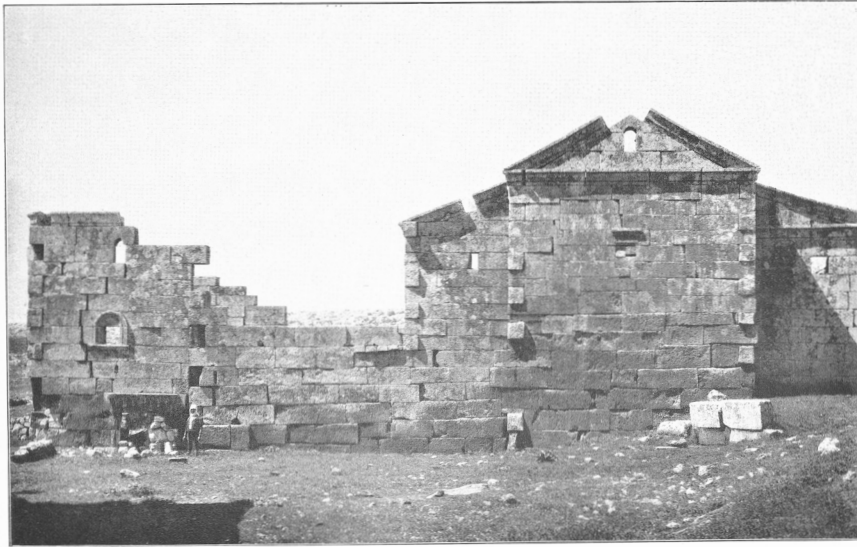
الواجهة الشرقية

ليست بالكبيرة، بل كان عرضها أكبر بكثير من طولها، ويحدها من الشمال رواق أنيق وراءه ثلاث غرف، وقد بني الرواق والغرف بعلو طابقين. وفي اثنتين من غرف الطابق الأرضي أقواس حَمَّالة، أما الغرفة الثالثة وهي الغرفة الشرقية فكانت أضيق من الغرفتين السابقتين وليس فيها قوس. وتصل جميع الغرف العلوية والسفلية بمداخل تربطها مع بعضها البعض. وتمتد خلف هذه الغرف الثلاث غرفة طويلة حُفر جزءٌ منها في جوف الصخر الصلب، ويدخل إليها من الغرفة الشرقية عن طريق باب له عتبة عالية من الصخر الطبيعي. وربما كانت هذه الغرفة بمثابة خزان مياه، وكانت تعلوها غرف يتم الصعود إليها عن طريق درج خشبي موجود في زاوية الغرفة الشرقية. هذا ويتعامد الجدار الغربي للفناء مع الرواق، ولكن جداره الشرقي يشكل معه زاوية منفرجة تميل نحو الشرق. وتلتقي نهايتا هذين الجدارين مع جدار يمتد بموازاة واجهة المنزل، وأقيم في كل زاوية عند هاتين الزاويتين هيكلٌ مربعٌ من ثلاثة طوابق على شكل البرج. ووضع أحد مدخلي هذه الفيلا في الجدار الواصل بين هذين المبنىين الشبيهين بالبرجين، في حين وضع مدخلها الآخر في الجدار الشرقي للبرج الشرقي منهما (الشكلان 154-155). وكانت الأرض التي بني عليها هذان الهيكلان منخفضة مقارنة مع مستوى الأرض التي بني عليها المنزل نفسه، وهناك جدار استنادي كان يربط بين الزاويتين الداخليتين للبرجين. وما تزال جدران المبنى الرئيس سليمة تماماً، مع ثلاثة من أعمدة الرواق السفلي وعمود واحد من الرواق العلوي. كما بقي السور الشرقي للفيلا بأكمله قائماً (الشكل 155) وكذلك الجزء الأكبر من سورها الغربي؛ لكن بالمقابل انهار الجدران الجنوبيان للبرجين والسور الذي كان يصل بينهما وهو يرقد الآن في حالة خراب تام (الشكل 154). وبالتالي انتقل إلى العناصر الزخرفية في هذا المبنى فقد كانت وافرّة تزين جميع أنحائه، ناهيك أنها لا تزال محفوظة بشكل جيد، وتتميز بذوق رفيع؛ إذ تتجلى أعمدة الرواقين العلوي والسفلي بطرزها الكورنثية المتناسقة، وقد نُحِتت أبدانها المؤلفة من قطعة حجرية واحدة نُحِتاً أنيقاً يعرض تحديداً خفيفاً؛ كما تتمتع تيجانها بأشكالها الجذابة، رغم أنها ازدانت بأوراق النباتات المائية (أوراق اللوف) عوضاً عن أوراق الأقتنة⁵⁰ المعتادة. ويتألف حَمَّال الرواق السفلي من شريطين مستقيمي المقطع وتاج مقعر رفيع مزدان بحلية مشطوفة الحافة، في حين يتميز حَمَّال الرواق العلوي بتاجه المقعر العريض الذي يحل محل الكورنيس. وثمة قوالب عميقة تؤطر المداخل والنوافذ الكبيرة في كلا الطابقين، وتسم بمقاطعها الكلاسيكية الأصل، ويزين كلاً منها تاجٌ ذو مقطعٍ مقعرٍ من الأعلى ومحدبٍ من الأسفل أو مشطوف الحافة. وظهرت على بعض هذه التيجان التي تعلو المداخل منحوتاتٌ على شكل أوراق الأقتنة المنتصبة شاقولياً، في حين كانت تتوسطها صلبان نُحِتت داخل أكاليل من الزهور. ولم تقتصر هذه الزخارف على بوابات

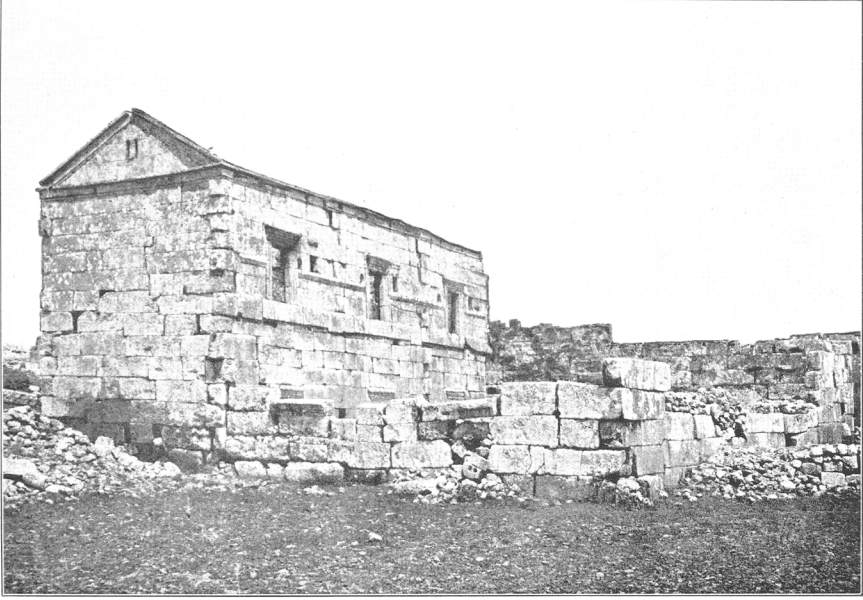
50 * وتعرف أيضاً بأوراق الخرشوف.



الشكل 154 دلولزة، المنزل (2) من الجنوب



الشكل 155 دلولزة، المنزل (2)، الجدار الشرقي



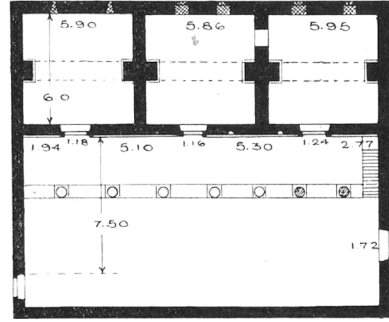
الشكل 157 دلوزة، المنزل (3) من الجنوب الغربي



الشكل 158 كوكبة، المنزل من الجنوب

دللوزة المنزل (3)

الشكل 156



المنزل الرئيس ونوافذه وإنما ظهرت أيضاً على أسواره الخارجية، وتمثلت في قوالب المدماك البارز وإطارات النوافذ، إضافة إلى زخارف البوابتين الخارجيتين للفيلا وقد تجسدت بالقوالب الأنيقة والتيجان ذات الزخارف المفرطة. كما وجدنا على ثلاث من بوابات هذا المنزل كتابات نُقش أحدها على مدخله الجنوبي⁵¹، والثاني لا يزال في مكانه الأصلي فوق مدخله الشرقي⁵²، أما النقش الثالث فقد ظهر على النجفة التي تعلو بوابة الغرفة الوسطى⁵³ في القسم السكني نفسه؛ ولكن لم يرد تاريخ بناء هذا المنزل في أي نقش من هذه النقوش الثلاثة. ورغم روعة منظر هذه الفيلا من جهتها الشرقية، إلا أن واجهتها الجنوبية كانت من كلِّ بدِّ منقطعة النظر عندما كان برجها ما يزالان شامخين على جانبي سورها الأمامي المنخفض وبوابته الساحرة؛ ولعلَّ هذا الارتفاع المنخفض للسور هو ما كان يدفع كلَّ عابر سبيل أن ينتهز الفرصة لكي يتأمل روعة واجهة هذا المنزل من الداخل وهي تطلُّ بكلِّ إباء وكبرياء من بين أعمدة الرواق المعمد وتخلق عالياً وراء هذا السور من بين برجيه الشامخين. هذا وترقى التفاصيل الزخرفية لهذا المنزل إلى الطرز العريقة الرائجة في العمائر التي ترجع إلى ما بعد عام 500 م؛ وهي مثال حي يشهد على الموجة العمرانية الجديدة التي اجتاحت شمال سوريا في القرن السادس للميلاد وطالبت بالرجوع إلى روح الزخرفة الكلاسيكية الأصيلة. وبالفعل كانت مداخل هذا المنزل نموذجاً مصغراً عن بوابات المعابد الرومانية، ونحتت نوافذه وفق الطراز نفسه؛ في حين بدت أعمدته أقرب إلى الأعمدة الكلاسيكية في كلِّ من شكلها وحجمها، وبرزت فيها الخطوط الأفقية بكلِّ دقة ووضوح. في الواقع ما من منزل سكني آخر من المنازل الأثرية التي عثرنا عليها في شرق البلاد وغربها قادر على أن يضاهي هذا المنزل في مدى إحيائه للسمات الكلاسيكية في كلِّ من تصاميمه وزخارفه،

51 الفصل الثالث، النقش رقم 1066.

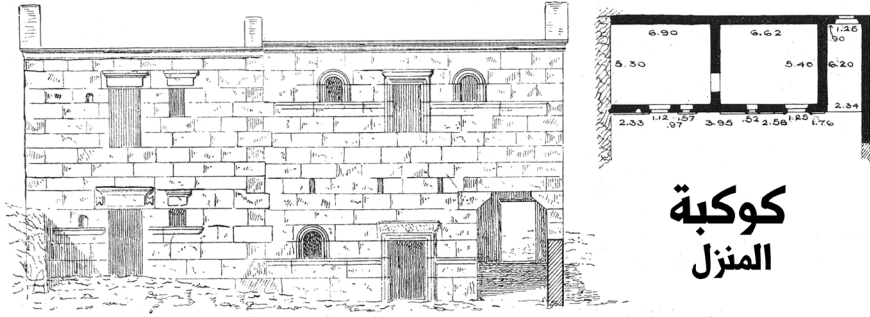
52 منشورات البعثة الأثرية الأمريكية إلى سوريا، الفصل الثالث، النقش رقم 222.

53 منشورات البعثة الأثرية الأمريكية إلى سوريا، الفصل الثالث، النقش رقم 223.

إلا تلك المنازل التي بنيت بعد بزوع عصر النهضة في إيطاليا، وكان هذا بعد مرور ألف سنة على الأقل من تحول هذا المنزل وغيره من المنازل الأثرية حوله إلى مدن منسية بآثمة. وبالانتقال إلى المنزل (3)، فهو عبارة عن فيلا كبيرة ذات مخطط بسيط (الشكل 156). وفيها ثلاث غرف من طابقين تقطعها أقواس حَمَّالة، وكان يتقدمها رواق من طابقين أيضاً. ولها فناءً مستطيلٌ مسورٌ بجدار شاهق. ولا تزال جدران المنزل والفناء سليمةً بالكامل (الشكل 157) لكن الرواق المعمد تدمر بالكامل. ولا يختلف هذا المنزل في تفاصيله عن المنزل (2)، كما يرجع تاريخ المبنيين إلى فترة زمنية واحدة.

47 كوكبة

تقع هذه البلدة الآن في حالة دمار كئيب، ولم يبق من مبانيها القائمة سوى منزل سكني واحد و برج مستقل بقايا محفوظين بحالة جيدة. وترقد أنقاض هذا المنزل السكني على أحد الجروف الجبلية شديدة الانحدار، وهناك مدفن كبير تحته كان قد حفر في جوف الصخر الحي. وفتح المدخل الخاص بالقسم السكني في الجزء الأعلى من المنزل، بينما فتح مدخل المدفن في الجزء الأسفل منه. وكان المدفن عبارة عن غرفة مربعة فيها لحود معقودة حفرت داخل الصخر الحي في ثلاث جهات، وسقفت بقبو أسطواني يديع من الحجارة المشدبة. في الواقع، ليس من المألوف العثور على مدفن داخل المنازل السكنية أو تحتها - كما هو الحال هنا - على الرغم من أنني أذكر وجود مثال آخر لمبنى في خربة حاس، كان قد ورد في منشورات إم دي فوجيه، وكان عبارة عن فيلا وجد تحتها أيضاً العديد من المدافن داخل قبو محفور في الصخر، وتوضع تحت مستوى سطح الأرض تماماً⁵⁴. لكنني أعتقد أنه يجب أن نضع إشارة استفهام عما إذا كان ذلك المبنى عبارة عن فيلا سكنية بالفعل أم أنه دير صغير. أما في مبنى كوكبة هذا، فيمكننا أن نقطع الشك باليقين، لأن هذا المعلم والذي يعد الأبرز في كوكبة كان من كلِّ بدِّ عبارة عن منزل مؤلف من قسمين سكنيين وقد بني على المنحدر الجبلي، بينما حفر جزء منه في جوف الصخر الحي (الشكل 158). وليس هناك أية أقواس في غرفته، وعلى الرغم من وجود مداخل في الطابق العلوي من واجهته، إلا أنه ليس هناك ما يدل على وجود رواق على الإطلاق. ويقع مدخل المنزل عند النهاية الشرقية من جداره الشمالي ويتصل مع ممر ضيق يؤدي بدوره إلى الفناء مباشرة بدون مدخل أو حتى قوس (الشكل 159)، ولهذا الممر سقوف حجري. وبسبب ميول الأرض التي أقيم

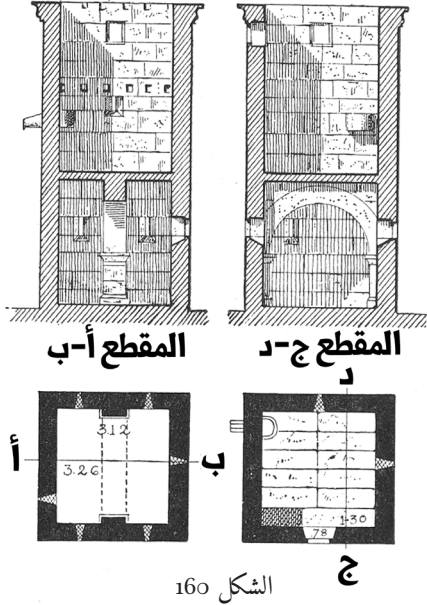


كوكبة المنزل

الشكل 159

عليها هذا المنزل فقد بنيت غرفاته على مستويين مختلفين وترجعان أيضاً إلى فترتين زمنييتين مختلفتين. فقد كان نصفه الغربي يشغل المستوى الأعلى منه، وقد حفر جداراه الشمالي والغربي في الصخر الحي حتى ارتفاع مترين أو ربما أكثر لا سيما من جهة الغرب، ويتناقص هذا الارتفاع تدريجياً كلما اتجهنا نحو الشرق. كما تتميز واجهة هذا النصف بطراز معماري يختلف عن بقية المنازل في المنطقة ويبدو أنها ترقى إلى فترة زمنية أقدم بكثير؛ إذ تشير القوالب البسيطة التي نتوج الأبواب والنوافذ في هذه الواجهة إلى الفنون الرائجة في النصف الأخير من القرن الرابع للميلاد. أما النصف الشرقي من المنزل، والذي أقيم على المستوى الأدنى من الأرض، فقد كان يخفض بمعدل متر كامل عن مستوى النصف الآخر، ومع ذلك كان كورنيش سقفه أعلى بحوالي 20 سم، وتمتد الغرفة فوقه حتى نهاية الممر. وتعرض واجهته بالفعل طرزاً وتصاميم أحدث من الطرز المعروضة في واجهة النصف الآخر من هذا المنزل. وتؤطر مدخله السفلي قوالب عميقة يعلوها تاج غني بالزخارف المنحوتة على شكل أوراق الأفتنة الشاقولية. وبجانب هذا المدخل نافذة معقودة بعقد نصف دائري وتؤطرها أيضاً قوالب عميقة. أما في الطابق العلوي فهناك مدخل ونافذتان، ويزدان المدخل بقوالب إطارات بدیعة فوقها تاج مزردان بالقوالب، في حين كانت النافذتان مستطيلتين ومزدانيتين بقوالب نحتت على شكل نصف دائرة فوق فتحة كل نافذة منهما. وبذلك نجد أن زخارف واجهة هذا النصف بأكملها تتمتع بطرزٍ تختلف أشد الاختلاف عن طرز واجهة النصف الآخر، حتى أن الكورنيش التاجي له مقاطع مختلفة، وروح الزخرفة التي يجسدها كانت بحد ذاتها مختلفة، وترقى في كل من مبادئ تصاميمها وأحجامها وتفصيلاتها إلى تصاميم برزت في صروح أثرية ترجع بحسب كتاباتها المؤرخة إلى القرن السادس للميلاد. وقد تم العثور على نقش⁵⁵ نُحت على بوابة الجزء الأحدث من هذا المنزل، ولكنه لم يتضمن أية تواريخ تشير إلى زمن بنائه.

كوكبة البرج



الشكل 160

البرج

نحو الجنوب الشرقي من هذا المنزل وعلى الجانب المقابل من الوادي الضحل، ينتصب برج صغير يتميز بأهمية غير عادية، فقد حافظ على جدرانه بعلو ثلاثة طوابق، وكان طابقه السفلي عبارة عن غرفة مستطيلة أبعادها $3.26 \text{ م} \times 3.12 \text{ م}$ ، ويقطعها قوس واحد (الشكل 160)، وتخللها نوافذ على شكل مراحي السهام الضيقة من كل جانب، لكن الغريب أنها بدون مدخل، ولذلك فقد تركت مساحة لوح من سقفها المغطى بألواح حجرية سماكتها 24 سم مكشوفة لتشكيل المدخل الوحيد فيها والذي يصلها مع الغرفة فوقها. وكان في هذه الغرفة العلوية مدخل فُتح في طرفها الشمالي، ونافذة ضيقة غربية، وأخرى جنوبية. وتشير التجاويف المحفورة في جدران هذا الطابق إلى أن سقفه كان بارتفاع 2.20 م. وعلى جداره الشرقي بالقرب من نهايته الجنوبية، هناك حوض كبير نصف دائري مثبت داخل الجدار على ارتفاع 1.26 م من أرضية هذا الطابق، لكن الحجر الذي برز هذا الحوض من داخله كان ارتفاعه 53 سم، وبذلك لم تبق سوى مسافة 40 سم تقريباً تفصل قمة هذا الحوض عن السقف. وفي أسفل الحوض فتحة كانت بالقرب من الجدار وتنتصل بقناة برزت خارج الجدار على شكل المزراب. وقد يُخيل إلينا من شكل هذا الحوض وقناته الخارجية أنه كان بمثابة المراض أو الميولة لكن ارتفاعه عن الأرض يجعلنا نستبعد كلا

الاحتمالين. وفي الواقع، يتعذر عليّ في الوقت الراهن اقتراح أي احتمال آخر لوظيفة هذا الحوض. ونظراً لدمار الطابق الأخير للبرج بشكل جزئي، لم يعد من الممكن معرفة ممّ صنع سقفه. وليس بوسعنا أن نتصور السبب وراء بناء برج بهذا الشكل، لأن هياكل أبراج المراقبة المعروفة عموماً في جميع أنحاء سوريا الوسطى كانت تحتوي على مداخل في طابقها الأرضي، وفي بعضها بروز على شكل الروشن⁵⁶ أو المنحني كان يظهر عادةً فوق مداخلها، وكان يستخدم لإطلاق⁵⁷ المقذوفات من السقاطات في أسفله، وفي بعضها الآخر مراحيض تبرز من داخل الجدران؛ إلا أن البروز الشبيه بالمرزاب في برجنا هذا لم يتوضع فوق المدخل، ويستحيل أن يكون مراحضاً بسبب علوه. ويذكرنا وجود المدخل في الطابق العلوي بطواحين الهواء القديمة، ولكن ما من دليل على أن طواحين الهواء كانت موجودة في زمن بهذا القدم في سوريا.

48 الدانا (الجنوبية)

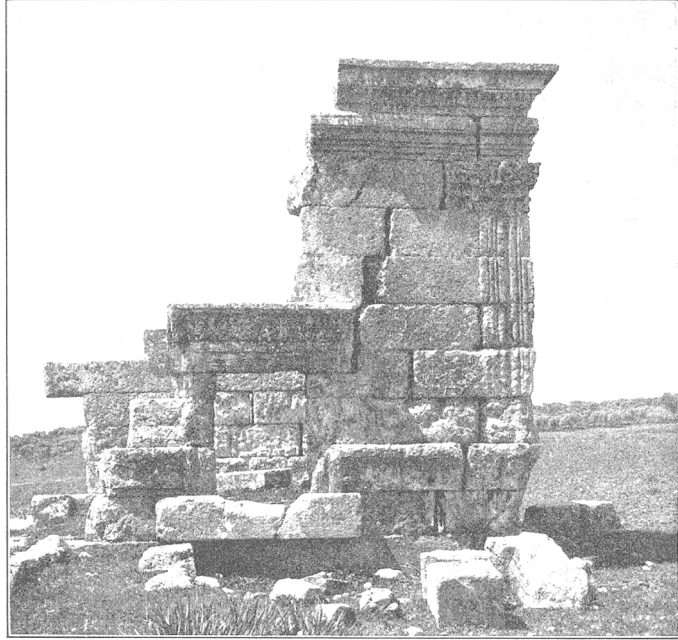
قرية الدانا بلدة سكنية صغيرة أقيمت وسط أنقاض بلدة أثرية قديمة كانت مساحتها أكبر من مساحة سرجيلا. ويبدو أن المكان بقي مأهولاً بالسكان لفترات طويلة من الزمن، ربما دامت لقرون عديدة، ولذلك فقد تعرضت مباني البلدة القديمة فيها إلى تدميرٍ جائرٍ وتمدّد سعيّاً وراء مواد البناء فيها. وهناك العديد من المدافن اشتهرت في هذه البلدة بعدما خلدتها إم دي فوجيه في منشوراته، وكانت ترصّع ضواحيها وتتناثر بين كروم الزيتون التي تفتش المنحدرات الغربية الممتدة إلى الأعلى من أوأبدها. ومن هذه المدافن مدفن أولمبيان⁵⁸ tomb of Olympiane، المظلة الحجرية القائمة على أربعة أعمدة؛ والمدفن الهرمي البديع⁵⁹ ذو الشرفة القائمة على أربعة أعمدة، والذي طالما تم تصويره كتحففة نادرة ورمزٍ خالدٍ لروعة العمارة في سوريا بين القرنين الثالث والسابع للميلاد. وقد حثت بعثة برينستون خطأها لزيارة هذه المدافن ذائعة الصيت، عوضاً عن إضاعة الوقت في البحث عن الآثار داخل القرية، وقد حالفها الحظ بأن عثرت على أنقاض مدفن هرمي آخر كان جديراً بإدراجه ضمن منشوراتها (الشكل 161) وذلك أثناء المضي في رحلتها نحو قصر البنات؛ وكان لهذا المدفن هيكلٌ أصغر ومنظراً أقل فخامة في كل تفصيلٍ من

56 * شرفة بارزة في أبراج القلعة تصب منها الزيوت والمعادن المنصهرة.

57 قارن مع سوريا الوسطى، الرسم التوضيحي رقم 58.

58 سوريا الوسطى، الرسم التوضيحي رقم 78.

59 المرجع السابق نفسه، الرسم التوضيحي رقم 77.



الشكل 161 الدانا (الجنوبية)، المدفن

تفاصيله من المدفن الهرمي الرائع الواقع في الجوار، كما أنه لم يحالفه الحظ في الحفاظ على شكله. ويصل طول كل ضلع من أضلاع حجرة الدفن فيه إلى حوالي 4.50 متراً من الداخل (الشكل 162)؛ وتعرض واجهته الأمامية منصة يتوجها قالب شديد البروز، ينتصب عليها هيكل يبلغ ارتفاعه حوالي 4.40 متراً حتى قمة الكورنيش، ثم يأتي فوقه هرم يزيد ارتفاعه على أربعة أمتار. وكان كل وجه من أوجه الجزء المكعب فيه يزدان بقوالب عند قاعدته، ودعامات ركنية محززة بالأخاديد تعلوها تيجان كورنثية، وعنصر حمّال وكورنيش مسنن. وتمتد قنوات الدعامات الركنية بشكل غير مألوف؛ إذ تتألف من ثلاثة أخاديد كان الأوسط منها مجوّفاً، في حين نحتت داخل الاثنين الآخرين حلية على شكل جبل بيضوي، في منتصفه شق عميق. وفوق الدعامات الركنية الوحيدة الباقية في مكانها الأصلي في هذا المدفن، هناك تاج يتميز بمنحواته الدقيقة وتناسق أبعاد أوراق الأقتنة المنحوتة عليه، لكنه كان أعرض بكثير من الدعامات الموجودة تحته مما يعطي انطباعاً أنه صنع لغرض آخر. وبالانتقال إلى العنصر الحمال فهو يتألف من الأسفل إلى الأعلى من ثلاثة أسرطة ضيقة، فوقها تاج مقعر ومحزب بشريط ضيق، وفوقه حلية مستقيمة المقطع تتوجها حلية بيضوية ولكتنا الحليتين العرض نفسه تقريباً. إن هذه القوالب تتميز بمقاطع نادرة الوجود في جبل



الشكل 162

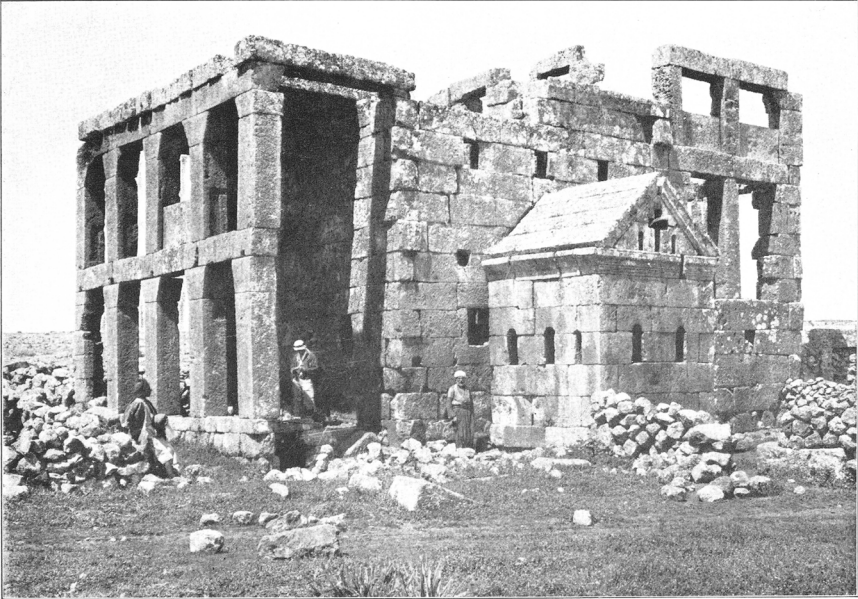
أريحا، ولكنها تذكّرنا بالمقاطع الرائجة في العناصر الجمّالة التي تزين المدافن المنتشرة في المنطقة الشرقية من هنا، على غرار مدافن معرّاة والغدفة⁶⁰. وأخيراً، يحتوي الكورنيش على حليتين عريضتين مستقيمتي المقطع تتوضعان أسفل شريط ضيق مسنّن، والذي تعلوه حلية مقعرة من الأعلى ومحدبة من الأسفل محززة بالأشرطة تمتاز ببروزها الشديد. ويقع مدخل المدفن في جداره الشمالي، وهو مؤطر بقوالب أنيقة أضيف إليها تاج مسطح وطويل مزخرف أيضاً بمنحوتات دقيقة من أوراق الأفتنة الشاقولية.

قصر البنات

إن الاسم العربي الذي يعرف به هذا القصر يعد من الأسماء الشائعة في سوريا، ويطلق عادة على المباني وليس على المواقع، لا سيما المباني المنزوية؛ وغالباً ما يشير معناه باللغة الإنكليزية "Castle of the Virgins" "قلعة العذارى" إلى افتراض أن الآثار التي تحمل هذا الاسم كانت ذات يوم أديرة للراهبات. وربما كان هذا العرف السائد صحيحاً في حالات معينة، ولكنه قد يخطئ في حالات أخرى. ففي مثالنا الحالي، يبدو من المستبعد تماماً أن يكون هذا المبنى في الأصل ديراً أو مبنى دينياً من أي نوع من الأنواع، ويقع المبنى الأثري هذا بجانب طريق قديم كان يربط قرية الدانا مع الهضاب الواقعة إلى الشمال الغربي منها، وهو لا يبعد فعلياً سوى بضع دقائق عنها، وكاد يكون على مرأى من القبر الهرمي لولا وجود ربوة تبرز في منتصف المسافة بينهما. وللمبنى مخططٌ ذو شكل غير منتظم (الرسم التوضيحي رقم 13)؛ ففي جنوبه رواق من طابقتين قائم على خمس دعامات، تتصل به من جهة الغرب غرفة ضيقة وطويلة ربما كانت بمثابة ممر المدخل، وعلى يمين المر بوابة تفضي إلى غرفةٍ أوسع لها الطول نفسه. وفي الجدار الشرقي لهذه الغرفة قوس يؤدي إلى غرفةٍ مستطيلةٍ صغيرة تبرز إلى الخارج من الجدار الشرقي للمبنى. وإلى الشمال من هاتين الغرفتين المذكورتين للتوجانح من ثلاث غرف ويشكل معهما نحو الغرب شكل الحرف L. وقد بنيت هذه الغرف الثلاث على مستوى أرضٍ أكثر انخفاضاً من الأرض التي بنيت عليها بقية أجزاء المبنى؛ وكانت الغرفة الوسطى منها عبارة عن ممر في جنوبه عدة درجات ومدخل يؤدي إلى المدخل الجنوبي الرئيس للقصر وفي شماله مدخل يفضي إلى الخارج. وهناك أقبية عميقة أو خزانات محفورة في الصخر الصلب تحت كلٍّ من الرواق والغرفة الكبيرة في المبنى، حيث كان الجدار الفاصل بينهما مصنوعاً من الصخور الطبيعية. ورُصفت أرضية الرواق وممر المدخل ببلاطات طويلة، بينما كانت أرضية الغرفة الكبيرة مصنوعة من الخشب وقد اندثرت الآن. أما الغرفة الصغيرة البارزة إلى الخارج من جهة الشرق فيعلوها سطح جملوني مزدوج الميول مصنوع من بلاطات حجرية تراكبت مع بعضها البعض بدقة تامة، وقد رُصفت أرضيتها ببلاطات حجرية أيضاً. وبالاتقال إلى الطابق الثاني من هذا المبنى نجد غرفتين فقط: غرفة فوق الغرفة الكبيرة والأخرى فوق ممر المدخل. ولهذا الطابق أيضاً شرفتان: شرفة فوق الرواق الجنوبي، وأخرى مكشوفة وكبيرة تشغل المساحة بأكملها فوق الغرف الشمالية الثلاث وترتكز على دعامات مربعة وطويلة، ويحدها متراس من البلاطات المستوية البسيطة. وقد سقفت الغرفة الضيقة فوق ممر المدخل والشرفة كليهما ببلاطات حجرية. لقد حافظت هذه الأجزاء المذكورة من المبنى على شكلها على أكل وجهه، ولم تستلزم إجراء أي ترميم يذكر؛ إلا أن الفحص الدقيق للمبنى كشف لنا عن وجود أجزاءٍ أخرى مدمرة يمكن مشاهدتها بوضوح في صورتني (الشكلين 163 و164)؛



الشكل 163 قصر البنات، بالقرب من الدانا، المشهد من الجنوب الغربي



الشكل 164 قصر البنات، بالقرب من الدانا، المشهد من الجنوب الشرقي

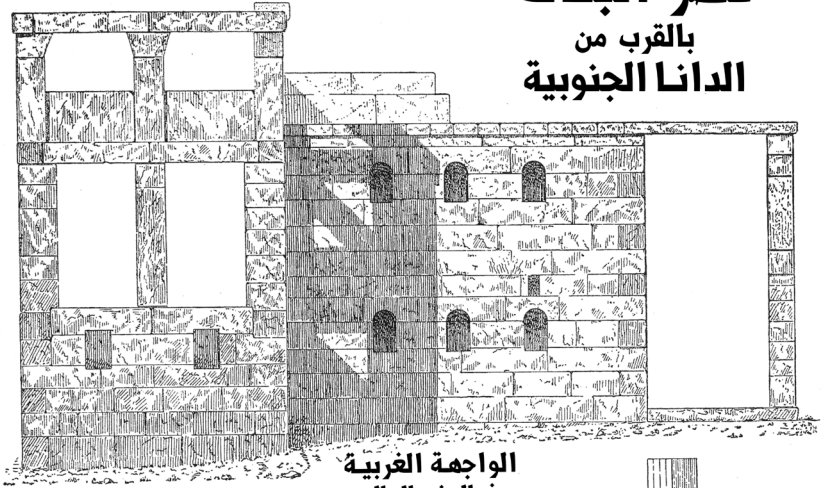
إذ يرتفع الجدار القاطع الرئيس - وهو الجدار الذي يفصل شمال المبنى عن جنوبه - بطول طابقٍ آخر وفيه مدخلان (الرسم التوضيحي رقم 14، الواجهة الجنوبية)؛ وقد بقيت كل من الدعامات والعنصر الحمال والمتراس في شرفة الطابق الثالث سليمةً تماماً من جهة الشمال، وكانت هذه الشرفة بدورها أقل ارتفاعاً من شرفة الطابق الأسفل بقليل. كما يشير الأخدود الغائر المعد لإدخال ألواح المتراس والذي يمكن مشاهدته بوضوح في النهاية الغربية من جدار الطابق الثالث (الشكل 163) إلى أن متراس شرفة أخرى كان يمتد على طول الجزء العلوي من الجدار الغربي الحالي للمبنى. أما على الجانب الشرقي منه، فهناك مدما كان اثنان وقالب بسيط لشريط بارز تشكل معاً الأجزاء الباقية من الطابق الثالث في ذلك الجانب (الشكل 164). ولذلك فقد عمّلت على إضافة غرفة ثالثة فوق الغرفة الرئيسة، ووضع شرفة فوق ممر المدخل الطويل، ورفع الجدار الجنوبي ليحمل سطحاً جملونياً (الرسم التوضيحي رقم 14، من الجنوب) يغطي كلاً من الغرفة الرئيسة والشرفة الغربية، ويمتد إلى الخلف ليغطي الشرفة الشمالية أيضاً. أما الطرف الغربي من الشرفة الشمالية فقد وُضعت عليه سطحاً جملونياً آخر يتعامد مع السطح الرئيس للمبنى ويتداخل معه (الرسم التوضيحي رقم 14، من الجنوب ومن الغرب). في الواقع، كان لا بد من ابتكار مثل هذه الأسطح الجملونية لهذا المبنى لأن الأسطح الخشبية المسطحة لم تكن رائجة في شمال سوريا. ولا بد أن نشير هنا أيضاً إلى وجود أدلة أخرى تدلّ على وجود متراس كان يطوق سطح الشرفة الجنوبية، ولذا فقد وُضعت مدخلاً في نهاية الشرفة الغربية على هذا الجانب لإتاحة الوصول إلى هذه الشرفة غير المسقوفة (الرسم التوضيحي رقم 14، من الجنوب).

يعد قصر البنات من حيث تفاصيله الزخرفية واحداً من الأتمات المعمارية الأشد بساطة والأقل زخرفة بين العمائر الأثرية في شمال سوريا؛ إذ تتكون الشرفتان الشمالية والجنوبية من دعامات صخرية بسيطة مؤلفة من قطعة واحدة عليها تيجان ذات شكل شبه منحرف بدت ملساء وخالية تماماً من الزخارف؛ كما أن العناصر الحاملة كانت بدون أي نوع من القوالب، حتى أن بلاطات المتراس كانت مستوية تماماً. وكذلك خلت جميع النوافذ من النقوش وتجردت نجفاتها من الزخارف. ولكن على نقيض ما سبق، تحتوي الغرفة البارزة من الجدار الشرقي على كورنيش مزدان بقوالب تميز بمقاطعها الأنيقة؛ فكان هذا الكورنيش مع قالب الشريط البارز في الطابق الثالث من السمات الزخرفية الوحيدة التي لا تزال باقية في مكانها الأصلي في هذا المبنى؛ ومع ذلك، فقد عثرنا على بقايا لكسّر محطمة من كورنيش مزدان بقوالب بسيطة كانت مترامية حول المبنى ونشير إلى أن كورنيش السطح المائل كان قد حظي بقدر أكبر من الزخارف. ورغم شدة بساطة العناصر الزخرفية في هذا المبنى والذي يعد الأبسط بين أقرانه، إلا أنه مثالٌ نادرٌ في هندسته المعمارية وجودة بنيته؛ إذ تعد أسطحه المستوية وحوافه المستقيمة وخطوطه المنحنية مثلاً فريداً عن الحرف اليدوية النادرة التي خلفتها لنا يد المعمارين الأوائل.

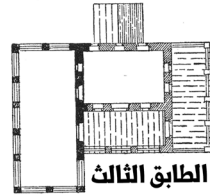
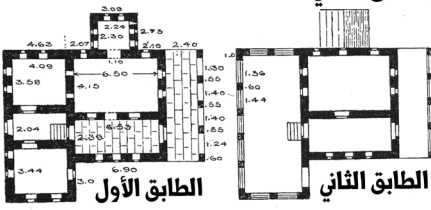
القسم ب، الرسم التوضيحي رقم 13

قصر البنات

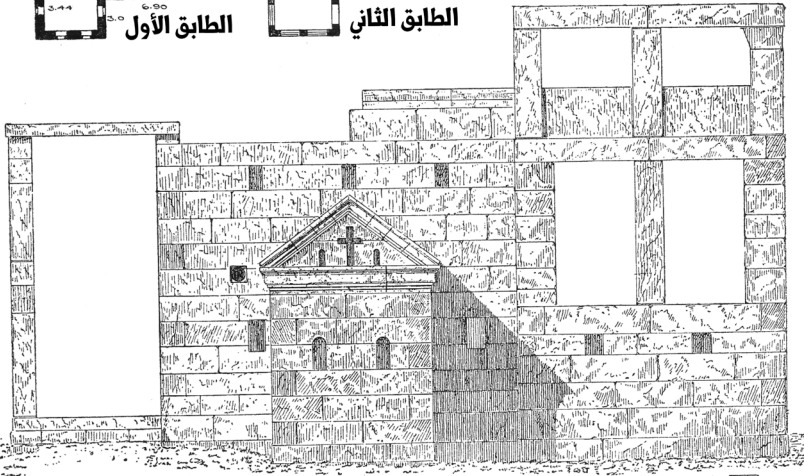
بالقرب من
الدانا الجنوبية



الواجهة الغربية
في الوضع الحالي



الطابق الثالث



المقياس: اسم = 1م

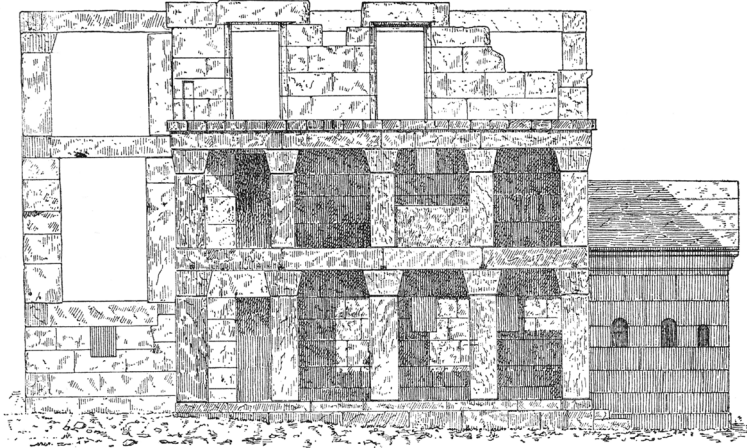
الواجهة الشرقية
في الوضع الحالي



القسم ب، الرسم التوضيحي رقم 14

قصر البنات

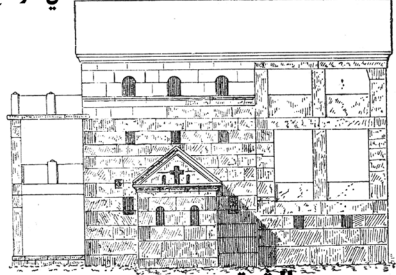
بالقرب من
المدانا الجنوبية



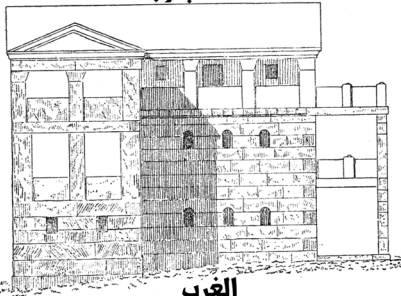
الواجهة الجنوبية
في الوضع الحالي



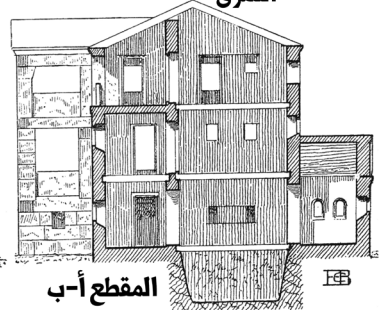
الجنوب



الشرق



الغرب



المقطع أ-ب

ترميم الواجهات

وبعد هذا الوصف الدقيق للمبنى لم يبق لدينا سوى سؤال واحد نظرحه: ما الغرض الأساسي يا ترى من وراء تشييد هذا المبنى؟ وهل كان ديراً للراهبات كما يمكن أن نستوحي من اسمه؟ قد تكون الغرفة الصغيرة البارزة نحو الشرق، ذات النوافذ الصغيرة في جوانبها الثلاثة والنافذة الصليبية في جملون سطحها، بمثابة مصلى متصل مع الغرفة الرئيسة للمبنى، أو ربما هيكل للكهنة في كنيسة كانت الغرفة الرئيسة هذه بمثابة صحنها. لكن إذا كانت نظرية المصلى هذه صحيحة فمن شأنها أن تجعل المبنى نموذجاً مستقلاً بحد ذاته؛ فهناك العديد من الأديرة الخاصة بالراهبات أو الرهبان في شمال سوريا، كانت ذات أحجام مختلفة وتصاميم متنوعة، ولكن لم يكن بينها ولا بين غيرها مصلى له مثل هذا الحجم الصغير الذي نجده هنا، أو مصلى كان جزءاً منه مجرد غرفة في منزل مع غرف سكنية أخرى فوقها وخزان مياه تحتها. ففي جميع الأمثلة التي شهدناها، كان المصلى مبنى قائماً في حد ذاته؛ وإن كان في كثير من الأحيان متصلاً بمبانٍ أخرى، إلا أنه لطالما كان منفصلاً عنها بشكل لا لبس فيه. علاوة على ذلك، لم يكن لهذا المبنى فناء ولا حتى حديقة، وإنما مجرد شرفات مكشوفة يسرح فيها الهواء الطلق، وهذا شكل من أشكال الرفاهية والبذخ وليس من أشكال الاعتكاف والتعب. لذا أعتقد أنه من الحري بنا البحث عن تفسير آخر للغرض من بناء هذا المبنى؛ وهنا علينا أن نضع في الحسبان غرضاً يتطلب عدة طوابق ويشترط وجود جو من الترف والرفاهية، كانت الأروقة الفسيحة والشرفات المكشوفة في هذا المبنى كفيلة في تحقيقه. وبما أن المبنى يقع بجانب الطريق الرئيس مباشرة، فكانت أول خاطرة بادرت إلى ذهني أنه كان بمثابة حانة أو نزل أو نخمارة قديمة *πανδοχείον*، لا سيما أن أحد النقوش⁶¹ في البلدة ذكر مكاناً يحيط فيه المسافرون رحالهم للراحة من عناء السفر ومحطة ترفيهية لسكان البلدات المجاورة. أهو حمامٌ يا ترى؟ أعتقد أن هذا الاحتمال مستبعدٌ لأن مخططه ليس معداً لاستيعاب الأقسام المعروفة في الحمامات العامة، وأظن أن أي جهد للبحث عن تفسير أفضل سيضيع سدىً. ولنرجع إذاً إلى الخاطرة الأولى: ففي دير سمعان⁶² - على سبيل المثال - هناك العديد من المباني التي يمكن تصنيفها بين أبنية النزل وكانت مخصصة لإيواء الحجيج الوافدين من كل حذب وصوب لزيارة ضريح القديس سمعان في قلعة سمعان، وكان فوق بوابة أحدهم بالفعل النقش *πανδοχείον* نفسه المشار إليه أعلاه. وإن كل هذه المباني، إضافة إلى الآثار في دير ترمانين⁶³، تسم بطرزٍ معمارية جامدة وخالية من النقوش الأمر الذي يجسد تماماً واقع قصر البنات القريب من الدانا؛ ورغم أن معظم هذه الأبنية كان أكبر بكثير، إلا أننا وجدنا في أحدها مصلى صغيراً يبرز من

61 منشورات البعثة الأثرية الأمريكية إلى سوريا، الفصل الثالث، النقش رقم 121.

62 الفصل الثاني، القسم ب، الجزء 6، وسوريا الوسطى، الرسمان التوضيحيان ذوا الرقمين 109 و114.

63 سوريا الوسطى، الرسم التوضيحي رقم 131.

جهة الشرق ويشبه إلى حد كبير الغرفة البارزة هنا؛ وأفترض أن هذا الهيكل الصغير كان بمثابة مصلى. وعندما ننظر إلى العديد من المنازل والفنادق التي يملكها مسيحيو الكنيسة الشرقية اليوم وكيف أنها تحتوي على غرف أو كَوَات صغيرة مخصصة لعرض الأيقونات، فلن نستغرب إذاً أن نجد مصلى صغيراً في أحد مباني النزل التي ترجع إلى العصور المسيحية الباكزة، لا سيما إذا كان هذا النزل قد تم بناؤه ولو نسبياً لإيواء قوافل الحجيج، وهو بالتأكيد أمرٌ ليس بالمستحيل في هذه الحالة. كما كانت الشرفات من الملامح البارزة لمباني النزل في دير سمعان وكانت أيضاً بعلو طابقيين أو حتى ثلاثة طوابق، وتظهر على أحد جوانب هذه المباني أو على كل جوانبها. ويبقى سؤال تصعب الإجابة عليه الآن وهو فيما إذا كانت هذه الشرفات قد بنيت من أجل "التنعم بالهواء الطلق" فحسب أم أنها كانت تستخدم أيضاً كأماكن للمبيت في الجو الحار. وإن كان الأمر كذلك فما من شك هنا أن قصر البنات هذا مزود بأماكن إقامة واسعة وفضيحة من هذا النوع.

49 الرويحة

الرويحة أكبر البلدات التي تتميز بفيلاتها الرائعة في جبل أريحا، وتغطي مساحة عدة فدانات من قبة هضبة تعد شبه منفصلة عن الكلّة الأكبر للجبل، وما هذه الهضبة إلا واحدة من سلسلة الهضاب المنتشرة عند سفوح منحدراته الشرقية. وانطلاقاً من موقع الرويحة يتحول انسياب المنحدر إلى تدرج طفيف نزولاً إلى بطن الوادي الفسيح الذي يمر عبره الطريق الرئيس. وتلوح أنقاض صروحها المهيبة بشكل خافت من الطريق الرئيس، لكن المنحدرات الصخرية الجرداء للتل والحجارة المشدبة المستخرجة من مقالع التل نفسه والتي استخدمت في بناء هذا الموقع الأثري تندمج مع بعضها البعض في خداع بصري يتناغم فيه اللون الرمادي الباهت، فتظهر هذه الأطلال وكأنها تنبت من بطن الصخر الطبيعي للتل، أو كأنها جزء لا يتجزأ عنه؛ وبذلك لا يتميز أي معلم أثري في هذه المنطقة بالوضوح ذاته الذي تشهده المعالم الأخرى الواقعة في بيئة تنتشر فيها غابات ومنحدرات تتشح بحلة من العشب الطبيعي والتي تشكل خلفية خضراء بديعة لهذه التحف الأثرية التي نحتها أيادي أجدادنا الأوائل. وعلى مقربة من مركز مدينة الرويحة الأثرية ساحة مكشوفة يبدو وكأنها كانت مطوّقة بأروقة المتاجر المكونة من طابقيين؛ ولذلك لا بد أن هذه الساحة كانت بمثابة السوق القديم. وحول الساحة من جميع جوانبها شوارع مستقيمة ضيقة، تصطف على جانبيها منازل صغيرة لا تبعد كثيراً عن السوق. إن مجموعة المباني هذه، والتي تبدو مدمرة الآن دماراً شبه كامل، كانت تشكل على ما يبدو تجمعاً يشبه إلى حد ما مركزاً للأعمال - أو ربما مدينة صغيرة - تتركز وسط عدد كبير من الفيلات المستقلة والمنفصلة عن بعضها

البعض. وإلى الغرب من بقايا هذه الأبنية المترابطة ينتصب الجدار الشرقي للكنيسة القديمة، وهي بازليكا متوسطة الحجم حافظت على شكلها بنسبة جيدة، وهناك مجموعة من المباني الأخرى التي توزعت حول فناء الدير إلى الشمال منها، وحديقة كبيرة مسورة جنوبها. وقد ظهرت هذه الكنيسة مرفقة بمخططات أفقية وثلاث صور فوتوغرافية في منشورات البعثة الأثرية الأمريكية إلى سوريا⁶⁴، وتجسد أبسط طرز الهندسة المعمارية في كنائس سوريا وأقلها زخرفة؛ وأكرر هنا ما سبق وقلته في المنشورات المذكورة أعلاه: إنها كانت على الأرجح بازليكا مدنية وجدت قبل انتشار بناء الكنائس. وبالاعتماد على طرازها وأسلوب بنائها يتوصل المرء إلى أنها ترقى إلى البدايات الأولى من القرن الرابع للميلاد أو الجزء الأخير من القرن الثالث للميلاد. وبعد الكنيسة، من جهة الغرب، هناك أنقاض للعديد من الفيلات الكبيرة المنفصلة عن بعضها، والمنتشرة على مساحات واسعة. وبالانتقال إلى الجنوب من مجموعة المباني المحيطة بالسوق، فتمتد شارع عريض، أقيمت فيلات كبيرة على جانبه الجنوبي؛ وهناك شوارع فرعية أخرى تفصل هذه الفيلات عن بعضها البعض، وتؤدي إلى فيلات أخرى أبعد وإلى مدافن تتناثر على مشارف المدينة. وقد قامت البعثة الأمريكية⁶⁵ باختيار إحدى هذه الفيلات لوصفها في منشوراتها. وعلى مقربة من آخر الشارع العريض من جهة الشرق مدفن المعبد⁶⁶ الرائع الذي حافظ على شكله بالكامل وقد نقش التاريخ 384 على قوسه العاتق. أما إلى الشرق من مركز الأعمال في وسط المدينة فهناك شارع عريض آخر يمتد شمالاً وجنوباً ويتوزع على جانبه صف بديع من الفيلات المذهلة التي تعد من أرقى الفيلات في سوريا، وقد تم نشر إحداها، والتي ترقى إلى العام 396 م، مع مخططاتها وبعض من صورها الفوتوغرافية في منشورات البعثة الأمريكية⁶⁷ أيضاً. وأخيراً إلى الشمال من مركز التسوق، وعلى بعد عدة كمل من المباني المدمرة والمنازل السكنية والفيلات الصغيرة، توجد الكنيسة الشمالية الكبيرة، التي أطلقنا عليها اسم "كنيسة بيزوس"، وذلك بناءً على النقش⁶⁸ الذي ظهر عليها ويشير إلى أن شخصاً يدعى بيزوس بن بارادوس of Bizzos son of Pardos هو من قام ببنائها، وقد أقيم له مدفن داخل أسوارها المقدسة. ووقع اختياري على هذا الصرح العظيم للحديث عنه في منشوراتنا هذه.

64 منشورات البعثة الأثرية الأمريكية إلى سوريا، الفصل الثاني، ص 99-102.

65 المرجع السابق نفسه، الفصل الثاني، ص. 177.

66 المرجع السابق نفسه، الفصل الثاني، ص. 113.

67 المرجع السابق نفسه، الفصل الثاني، ص. 119 و122 و225.

68 منشورات البعثة الأثرية الأمريكية إلى سوريا، الفصل الثالث، النقش رقم 266.

كنيسة بيزوس

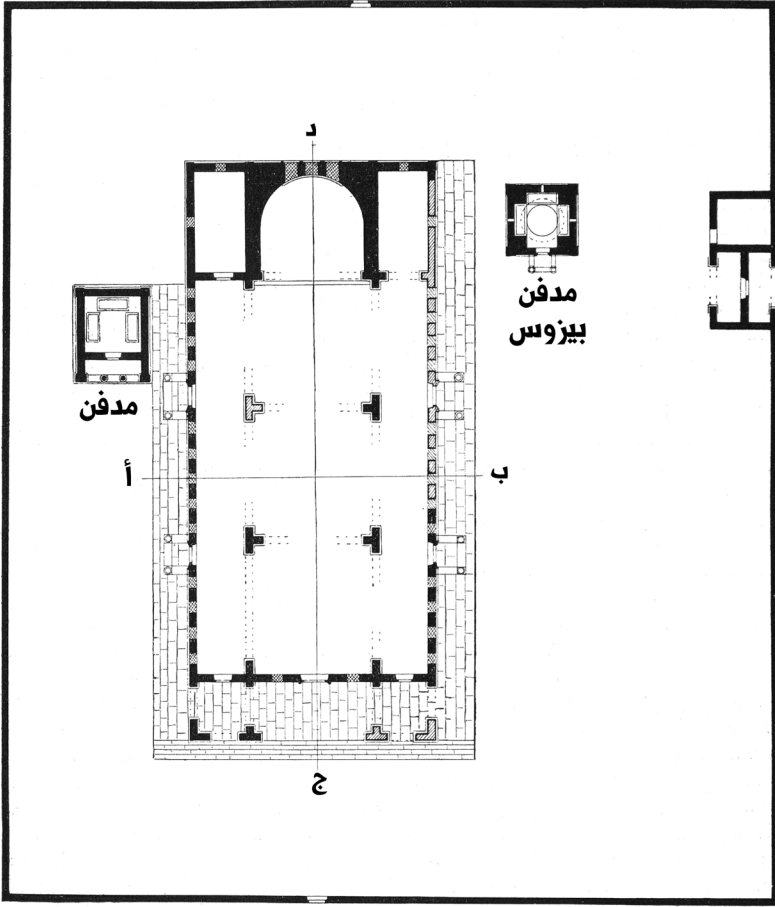
إن كنيسة بيزوس هذه تعد الكنيسة الأكبر في جبل أريحا، وهي ثاني أكبر كنيسة بعد الكنيسة الكبيرة في براد في جبل سمعان، وثالثها بعد "كاتدرائية" كراتين، والتي تعد الأكبر بين جميع الكنائس السورية المعروفة قاطبة. وقد سبق وتم نشر مخططها الأفقي مع مقطع عرضي من المقياس الكبير ومقطع طولي من المقياس الصغير في كتاب "سوريا الوسطى"⁶⁹، بالإضافة إلى ذلك ظهر مخططها (المنسوخ عن مخطط إم دي فوجيه) مع خمس صور فوتوغرافية عنها في منشورات البعثة الأمريكية إلى سوريا⁷⁰. ونظراً لأنها من أجمل الكنائس في المنطقة التي تعمل على دراستها في هذا الجزء من منشوراتنا الحالية، ولأنها تعد من نواحي معينة أهم كنيسة في شمال سوريا، فقد رأيت أنه من المحبذ إعادة نشرها هنا، ورفدها بمخطط جديد، ومجموعة كاملة من الواجهات والمقاطع من المقياس الكبير، مع صورتين لم يتم نشرهما من قبل.

المخطط

لا يختلف المخطط (الشكل 165) الذي سأقوم بعرضه هنا، في نقاطه الأساسية، عن ذلك الذي نشره إم دي فوجيه إلا من خلال التمييز بين جدران الكنيسة التي انهارت وتلك التي لا تزال قائمة عبر رسم الأولى بخطوط متقاطعة والثانية بلون أسود داكن، وكذلك في توضيح المنصة التي بنيت على كلا جانبي الكنيسة وأمامها برسمها على شكل الرصيف. ولعل السمة الأبرز التي تميز كنيسة بيزوس عن بقية الكنائس في سوريا تتمثل في مخططها، وأعني على وجه التحديد دعامات الصحن التي تتخذ شكل الحرف T، والتي لم تعمل على دعم الأقواس الطولية المعتادة فحسب، بل كانت ركيزة أيضاً لقوسين عرضيين أكثر ارتفاعاً امتدا عبر الصحن وعملا على تقسيمه إلى ثلاثة مربعات متساوية. وفي هذه الكنيسة أيضاً رواق ناركس مقنطر وواسع يتصدر الطرف الغربي من الصحن، وشرفات مسقوفة تتركز على عمودين أضفت على البوابات على جانبي الصحن هيبية ووقاراً، وهيكل على شكل حنية عميقة ومخفية داخل جدار شرقي مستقيم تتوضع بين غرفتين ضيقتين ومستطيلتين. ويوجد هنا أيضاً مدفنان: أولهما مدفن بيزوس المقرب الواقع على بعد بضعة أمتار فقط إلى الجنوب من جدار غرفة القدا، وثانيهما مدفن المعبد ذو المدخل الغائر القائم على عمودين وينتصب بدوره شمال الكنيسة، بالقرب من الطرف الشرقي من مجازها الشمالي. ويحيط بكل من الكنيسة والمدفين سور عظيم يشكل باحةً مربعة الشكل يدخل إليها من ثلاث بوابات: بوابة من الجنوب مؤلفة من دهليز فيه قوسان بني داخل السور وبمخازاته حجرة لإقامة حاجب الكنيسة، وبوابتان بسيطتان من الشرق والغرب.

69 سوريا الوسطى، الرسمان التوضيحيان ذوا الرقين 68 و69.

70 منشورات البعثة الأمريكية إلى سوريا، الفصل الثاني، ص 227-229.

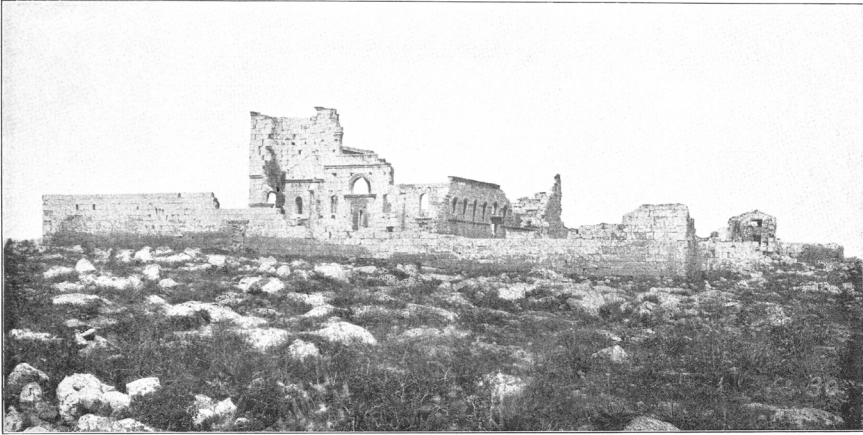


الرويحة "كنيسة بيزوس"

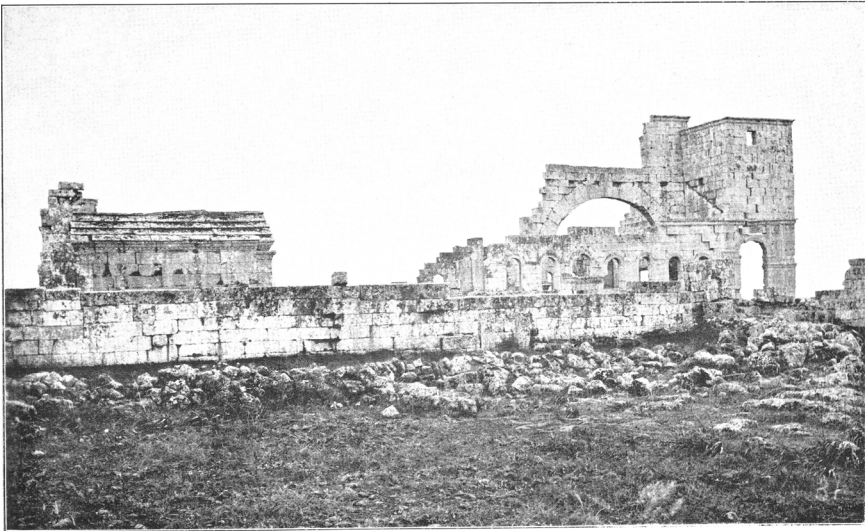
الشكل 165

البنية الفوقية

لاستعراض الحالة التي حافظت فيها هذه الكنيسة على شكلها يمكننا الرجوع إلى الصور الفوتوغرافية التي أشرنا إليها أعلاه والمعروضة في منشورات البعثة الأمريكية إلى سوريا، وإلى صورتين فوتوغرافيتين في (الشكلين 166 و167) المرفقتين هنا، وكذلك إلى الرسمين التوضيحيين (15 و17)، واللذين يعرضان أيضاً الإضافات الترميمية لأجزائها المدمرة. فقد بقيت الواجهة الغربية للصحن قائمة بالكامل في طابقها السفلي بما في ذلك البوابة المركزية الكبيرة والبوابتان



الشكل 166 الرويحة، "كنيسة بيزوس"، المشهد من الجنوب الغربي



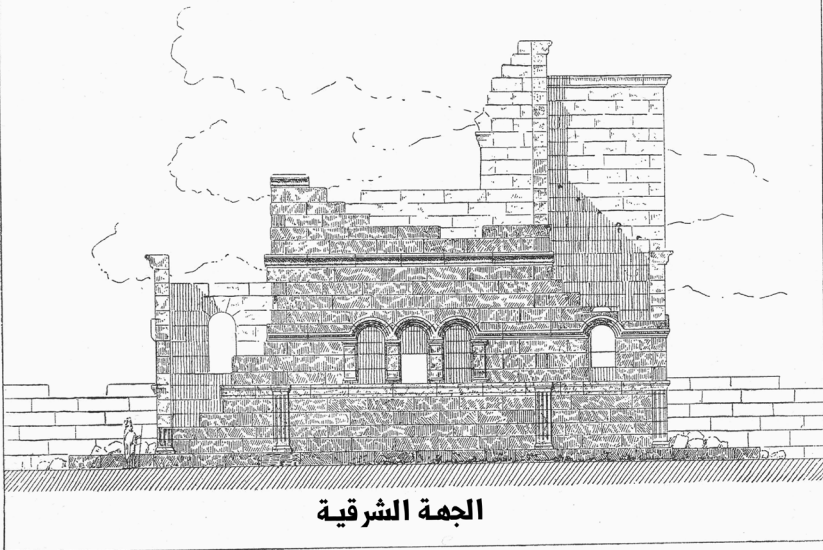
الشكل 167 الرويحة، "كنيسة بيزوس"، المشهد من الشمال

القسم ب، الرسم التوضيحي رقم 15

الرويحة "كنيسة بيزوس" الوضع الحالي



الواجهة الغربية



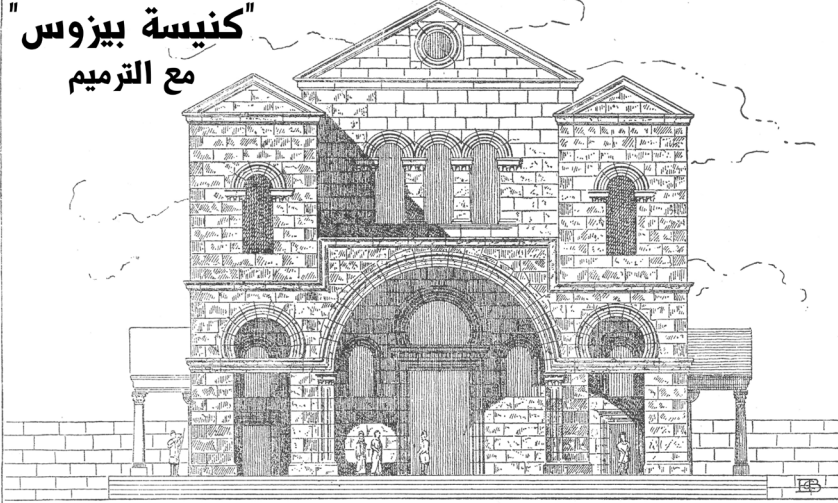
الجهة الشرقية

القسم ب، الرسم التوضيحي رقم 16

الروحية

"كنيسة بيزوس"

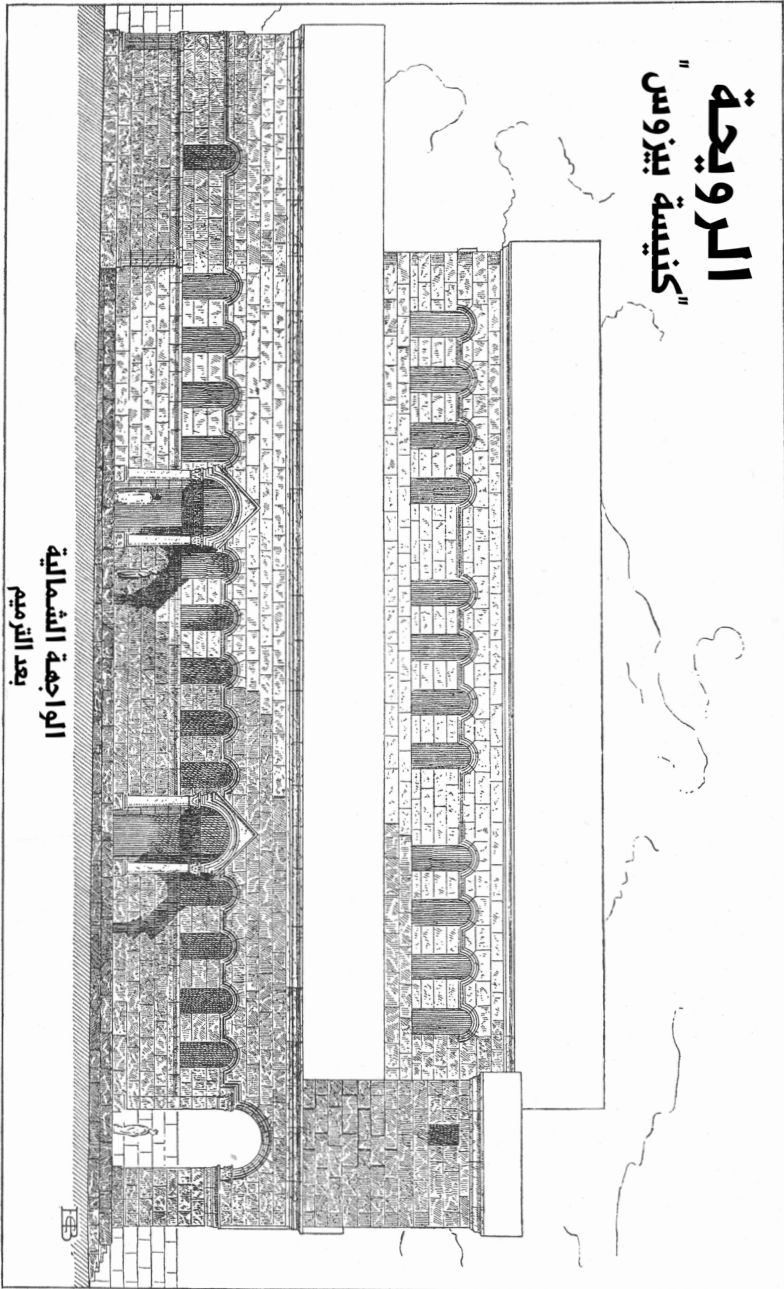
مع الترميم



الواجهة الغربية



المقطع أ-ب



الجانبين والنوافذ الأربع. ولقوس تخفيف الحمل الذي يعلو البوابة الكبيرة شكلٌ يشبه "حدوة الحصان" حيث إن منحناه يبدو أطول بكثير من منحنى نصف الدائرة. ولم يبقَ من الطابق العلوي في هذه الواجهة سوى جدار البرج القائم عند نهاية المجاز الشمالي مع جزء من الجدار الغربي للمجاز الرئيس للكنيسة، وما يزال يظهر فيه طرف النافذة الشمالية الأخيرة من نوافذه الثلاث. وبالانتقال إلى رواق النارتكس فلم يبقَ فيه سوى القوس القائم عند نهايته الشمالية، مع الجدار الشمالي للبرج فوقه. ولا تزال الدعامة التي تتخذ شكل الحرف L في الزاوية الشمالية الغربية من هذا الرواق تدعم الجزء المتبقي من قوس حدوة الحصان فوق النجفة على الجانب الغربي، وتعد هذه الدعامة من التفاصيل المهمة التي ساعدتنا على ترميم نهايتي النارتكس (الرسم التوضيحي رقم 16). أما دعاماته التي تتخذ شكل الحرف T، فلا تزال الدعامة الشمالية الأخيرة منها قائمة على ارتفاع مترين، بينما تدمرت الدعامات الأخرى، ومع ذلك بقيت جميع حمالاتها المقابلة في الجدار الغربي للكنيسة قائمة في مكانها، وما يزال على اثنين منها تاج وبعض من حجارة القوس. وليس هناك أدنى شك في أن قوساً عرضياً كبيراً كان يصل بين الدعامتين T في هذا النارتكس (الرسم التوضيحي رقم 16). ووضع فوق هذا القوس قالب مستقيم، فكان أعلى بمدماك واحد من القالب الذي لا يزال موجوداً في الجدار الغربي للكنيسة. وقد أضيف هذا القالب الممتد فوق قوس النارتكس على الأرجح عند نهايات بلاطات السقف التي استقرت، في الطرف المقابل، على القالب الآخر (الرسم التوضيحي رقم 18، الطرف الأيسر). ومما ساعدنا على ترميم كلا البرجين وجود جزء من نافذة في الجدار الغربي للبرج الشمالي فوق رواق النارتكس. وبذلك فإن الأجزاء الوحيدة في الواجهة الغربية المعروضة في (الرسم التوضيحي رقم 16) والتي اعتمدنا على عامل التخمين في ترميمها تتمثل بالقوصة المركزية الباسقة والسطحين الجملونين على كلا جانبيها. ويعرض (الرسم التوضيحي رقم 17) تصوراً عادلاً للجناحين الجانبيين، كما أن نسبة الدمار التي تعرضت لها كانت متساوية نسبياً في كليهما، باستثناء جانب البرج، وجزء من المنور العلوي، وجدار غرفة الحنية، وقد بقيت هذه الأجزاء محفوظة على الجانب الشمالي فقط. إن الأجزاء المظللة تظليلاً أغمق في (الرسم التوضيحي رقم 17) هي الأجزاء الباقية، في حين اعتمدنا في ترميم الشرفات على أعمدتها المتساقطة وأجزاء من أقواسها، وذلك بمساعدة التجايف في الجدران التي كانت العناصر الحاملة وعوارض سقف الشرفات مثبتة في داخلها. ولم أعتد على التخمين في رسم هذا الجانب إلا في شكل السطح الذي يغطي الغرفتين الجانبيتين، وحتى هذا التخمين كان شبه قاطع. وبالانتقال إلى الجدار الشرقي في الكنيسة، فلم يحتفظ سوى بجزء منه فقط (الرسم التوضيحي رقم 15)، إذ بقيت المداميك السفلية في مكانها من بدايتها حتى نهايتها، وما تزال النافذة في نهاية غرفة الشماسة قائمة، بينما تدمرت نافذة غرفة القديس مع معظم جدرانها. أما الجزء المركزي من هذا الجدار فقد حافظ على شكله بحالة ممتازة، بما في ذلك النوافذ

الثلاث للحنية. وهناك ثلاثة قوالب أفقية عملت على تقسيمه إلى ثلاثة أقسام، امتد القالب الأول منها عند مستوى عتبة النوافذ، والثاني عند مستوى خصر عقد النوافذ، بينما كان الثالث امتداداً لقالب الكورنيش في جداري المجازين الجانبين. وفوق هذا القالب الأخير ارتفع الجدار بمعدل خمسة مداميك أخرى ظهر فوقها جزء من قالب رابع لا بد أنه كان يمتد عرضياً ليقطع الجزء المركزي من الجدار، وربما انحرف عند نهايته نحو الأسفل، مع زاوية ميول سطحي المجازين. وبالعودة إلى تفاصيل الكنيسة من الداخل، فقد بقيت من دعامتها الداخلية ثلاث دعامات على شكل الحرف T مع قوس واحد - وهو القوس الغربي الأخير من البائكة الشمالية - وجزء من جدار المنور العلوي فوقه. وكانت هذه الأجزاء كافية لترميم الكنيسة بأكملها من الداخل (الرسم التوضيحي رقم 18). ويظهر فوق الدعامتين الغربيتين من الداخل عمود مرتفع لدعامة حاملة كانت مهمتها حمل الأقواس العرضية عند مستوى المنور العلوي. ولا شك في أن هذه الأقواس العرضية كانت تحمل الجملونات، مما أدى إلى التقليل من عدد الأسطح الجملونية المطلوبة لسقف هذه الكنيسة، ومن القوة والحجم اللازمين للأخشاب المستخدمة فيها. وقد تم اكتشاف هذه الميزة في كنيسة الرويحة منذ زمن بعيد من خلال الرسومات التي نشرها إم دي فوجيه عنها، لتكتسب بذلك أهمية عظيمة في تاريخ الهندسة المعمارية. هذا وإن المثال الآخر الوحيد لمثل هذه الأقواس العرضية والذي يُزعم أنه يرجع إلى عصر قديم ويتمتع بنمط معماري مماثل هو الذي يتجلى في كنيسة سانتا براسيد Sta. Prassede في روما، لكن تاريخ هذه الكنيسة مشكوك فيه كثيراً؛ إذ لا يُعتقد أنها أقدم من القرن الثامن للميلاد، بل قد تكون بنيت بعد ذلك التاريخ بزمن طويل. أما المثال الذي نستعرضه أمامنا هنا فن المستبعد أن ينسب إلى ما بعد القرن السادس للميلاد، بل يُرَّحَّ أنه يرجع إلى تاريخ أقدم بكثير. ولعلّ المثال الآخر الوحيد الذي تم العثور عليه في هذه الأجزاء البعيدة من سوريا هو الكنيسة الصغيرة في الطوبة، والتي اكتشفها بعثة برينستون الأثرية في منطقة الكلّة البازلتية إلى الجنوب الشرقي من جبل أريحا، وقد سبق وقنا بوصفها في منشوراتنا⁷¹ هذه وترقى إلى العام 582 للميلاد؛ إلا أن الأقواس العرضية في كنيسة الطوبة كان قد تم تعزيزها بأقواس منخفضة أخرى قطعت المجازين الجانبين، وبمحملات مثبتة في جداري هذين المجازين. في الواقع، قد تكمن نقطة الضعف في نظام الأقواس المستخدم في كنيسة الرويحة في الافتقار إلى مثل هذه الدعائم الجانبية المنخفضة، لأن الأقواس العرضية كانت عالية جداً لتبقى صامدة ومتينة بدون أكتاف ترتكز عليها؛ ومع ذلك، فقد توصل المعمارى الذي أشرف على بناء كنيسة بيزوس هذه إلى مبدأ هام ووضعه موضع التنفيذ فيها - ورغم أن هذا المبدأ لم يُقدَّر له، بسبب ضيق الوقت، التطور والانتشار في الأراضي السورية بحد ذاتها، إلا أنه لعب

دوراً جوهرياً في التطور الذي شهدته العمارة المسيحية في أوروبا في العصور اللاحقة. وما من شك في أن الأقواس العرضية فوق صحن الكنائس كانت من التفاصيل الشائعة في جنوب سوريا، ولكنها لم تستفد من هذا المبدأ المذكور هنا، لأنها كانت تُستخدم بدون أقواس طولية، وكانت توضع على مسافات قريبة من بعضها البعض لملء الألواح الرقيقة للأسطح الحجرية المستوية. إن المبدأ الجوهري الذي أشرت إليه للتو والذي تم تطبيقه في بناء كنيسة الرويحة يتمثل في تقسيم الصحن إلى مربعات بواسطة الأقواس الطولية والعرضية، الأمر الذي يعمل على توفير بنية متينة أصبحت في قرون لاحقة ركيزة في علوم الهندسة المعمارية لملء الأقبية المتقاطعة ذات الارتفاعات الشاهقة. ولا أعني بكلامي هذا أن معماري كنيسة بيزوس هذه لم يكن على دراية بعمارة الأقبية وجدوى استخدامها لسقف المبنى الذي قام باختكار مخططاته، ولكن يبدو أن المعمارين في هذا الجزء من سوريا كانوا وبكل بساطة لا يحبذون استخدام الأقبية على الرغم من إلمامهم التام بجدواها العملية، لا سيما وأن الأمثلة الرائعة التي سُقفت بمثل هذه الأقبية لم تكن تبعد سوى بضعة أميال نحو الشرق في كلٍّ من الأندرين وقصر ابن وردان، ولكن الحقيقة أن الوقت لم يكن حليفاً بلورة هذا التطور العمراني لأن التوصل إلى الدمج بين أسلوبين البناء المتمثلين بعظمتهما في كلٍّ من كنيسة الرويحة وكنيسة قصر ابن وردان⁷² لم يكن ليستغرق أكثر من قرن واحد وُلُكَّ شهدنا عندها أمثلة عظيمة عن الكاتدرائيات ذات الأقبية المتقاطعة في كل بقعة من أرض سوريا.

وفي الطرف الشرقي من الصحن، لم يبق سوى استدارة الحنية مع نوافذها الثلاث، وإحدى دعامتي قوس المذبح، في حين انهارت نصف قبة الحنية. وما تزال دعامتا أقواس الصحن المتصلتان بالجدار قائمتين على كلا الجانبين بجوار الحنية مع اثنتين أو ثلاثة من مجارة الأقواس فوق كل منهما. كما بقي الجدار الغربي لغرفة الشماسة في موقعه الأصلي، في حين لم تبق سوى إحدى دعامتي قوس غرفة القداس قائمة في مكانها. وقد حافظ كلا المدفنين على شكلهما بحالة رائعة، كما هو واضح في الرسم التوضيحي⁷³ المخصص لهما في كتاب "سوريا الوسطى" وفي الصور الفوتوغرافية التي نُشرتها البعثة الأمريكية⁷⁴ لهما. وبقي سور الباحة حول الكنيسة قائماً بأكله تقريباً، لكن دهليز المدخل كان مدمراً تدميراً جزئياً.

72 الفصل الثاني، القسم ب، الجزء 1، ص 29-34.

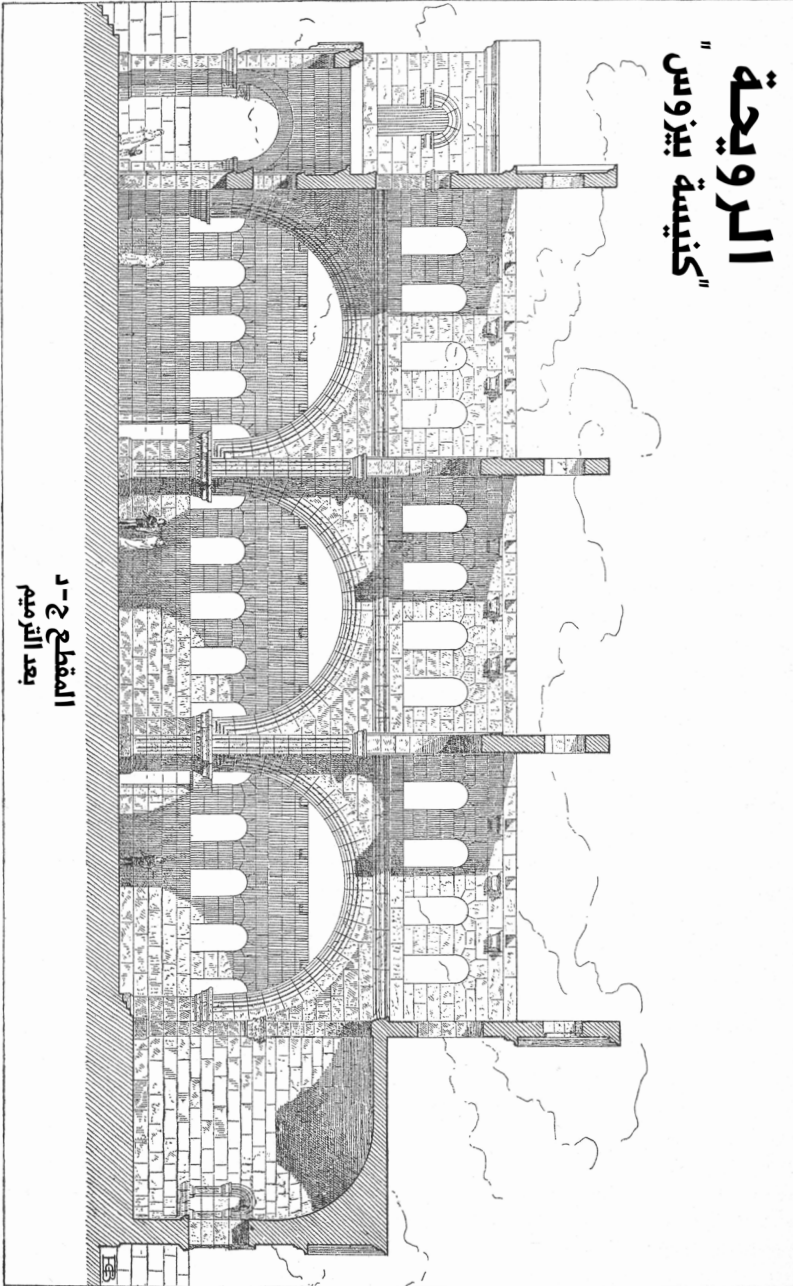
73 سوريا الوسطى، الرسم التوضيحي رقم 91.

74 منشورات البعثة الأثرية الأمريكية إلى سوريا، الفصل الثاني، ص. 163 و248.

الزخارف

تتمتع الزخارف المنحوتة في كنيسة بيزوس بأهمية فريدة، فرغم أن هذه الكنيسة لم تكن غنية جداً بزخارفها، كما هو الحال في بعض الكنائس اللاحقة في جبل باريشا وجبل سمعان، إلا أنها تعدّ مع ذلك من الكنائس الأكثر ثراءً في جبل أريحا. وتتميز زخارفها هذه بتحفّظها ومع ذلك فقد كانت منحوتة بإتقان ومهارة منقطعي النظر. وإن التركيز على الخطوط الأفقية المتمثلة في قوالب الأشرطة البارزة، وتوظيف الركائز ذات الأحاديث في كلّ جدارٍ من جدرانها، هما أكبر دليلٍ على قوة تأثيرها بالطرز الكلاسيكية والعودة إلى فنون الزخرفة الكلاسيكية الرائجة في هندسة العمائر التي ترقى إلى القرن السادس للميلاد في شمال سوريا. فعند التأمل في ترميم الواجهة الغربية للكنيسة (الرسم التوضيحي رقم 16) نشهد مجموعة متنوعة من القوالب الزخرفية، وتلبس الأسلوب اللاف لاحتها ضمن مسارات شاقولية وأخرى أفقية - وهو طراز سوري الأصل يطغى عليه الجوهر القوطي أكثر من الكلاسيكي. وإن أول هذه القوالب هو قالب العنصر الحمال الممتد فوق دعائم التارثكس وينعطف عند القوس المركزي الكبير ليشكل إطاره الزخرفي البديع، ثم يتابع مساره بشكل أفقي تحت القوسين الجانبيين اللذين يتخذان شكل حدوة الحصان. ولهذين القوسين قوالبها الخاصة التي تتمتع أيضاً بمقاطعها المختلفة. وثاني قوالب الواجهة هي قوالب الكورنيش التي تعد امتداداً لكورنيش الجدارين الجانبيين للكنيسة وتمتد بدورها فوق القوسين الجانبيين لتلتف نحو الأعلى بزاوية قائمة ثم تستدير مرة أخرى لتعاود مسارها الأفقي فتشكل بذلك قوالب رائعة تزين نهاية البهو الرئيس للكنيسة تماماً فوق القوس الكبير للتارثكس. أما البوابة الرئيسة فتجتمع فيها العناصر الكاملة التي تشكل عادة قوالب الإطارات ذات المقاطع الرومانية القديمة - ثلاثة أشرطة مستقيمة المقطع وحية محدبة من الأعلى ومقعرة من الأسفل - كما يتوجها كورنيش مع حمالاته الزخرفية. وازدانت الحمالات الزخرفية هذه بأشكال أوراق الأقتنة الملتفة، كما تميز التاج بئراً منحوتاته وزخارفه النباتية المؤلفة من الأوراق وسعف النخيل. وكذلك ازدانت واجهة القوس فوق البوابة والمصمّم على شكل حدوة الحصان بمجموعة من القوالب الغنية. إن هذه البوابة واحدة من أكبر بوابات الكنائس في سوريا، حيث تعد أبعادها أقرب إلى أبعاد بوابات المعابد الرومانية منها إلى بوابات الكنائس العادية، ولكن البوابتين الجانبيتين لهما الأبعاد التقليدية المعروفة في المنطقة وتزينهما قوالب الإطارات وتيجان ذات قوالب بسيطة. هذا وقد ازدانت جميع نوافذ الطابق السفلي في واجهة الكنيسة بقوالب محززة في كلّ من قوائمها وأقواسها. أما مجموعة النوافذ الثلاث في الطابق العلوي فكانت تحتوي على قوالب معقودة ونافرة، تنبثق من ركائز محززة تعلوها تيجان تتكون من جزأين: الجزء العلوي مؤلف من حلبة ضيقة مقعرة من الأعلى ومحدبة من الأسفل، والسفلي من شريط من الحمالات الزخرفية الصغيرة. ولا تزال إحدى هذه الركائز في مكانها مع أولى حجرات القوس فوقها. كما تمثل نافذتا البرجين في هذا

"الروحية" "كنيسة بيزوس"



المقطع ج-د
بعد الترميم

القسم ب، الرسم التوضيحي رقم 18

الطابق بفتحيتين بسيطتين لهما تصميم النوافذ الثلاث نفسه. وربما كان فوق هذين البرجين طابق آخر أو أكثر، ولكن بسبب عدم وجود أدلة كافية على شكلهما فقد اكتفيتُ بإضافة سطح جملوني لكلٍ منهما. وبالانتقال إلى الشكل الجانبي للكنيسة (الرسم التوضيحي رقم 17)، نشاهد وبوضوح أكبر التركيز المنصَّب على خلق انطباع أفقي للكنيسة. حيث نجد هنا قالباً ريفياً ذا مقطع بسيط يمتد عند مستوى عتبات النوافذ على شكل شريط بارز متكامل لا ينقطع سوى عند تيجان الركائز القصيرة المزدانة بالأخاديد التي تحدد نهايات الغرفتين المجاورتين للحنية. لكن الغريب في الأمر أن هذا الشريط ينتهي في الطرف الغربي من الجدار عند ركيزة طويلة عليها تاج كورنثي. وتنصب هذه الركيزة الطويلة على جانب واحد فقط من القوس المفتوح في نهاية رواق النارتكس. ولهذا القوس عقدٌ نصف دائري، وينبثق من الجانب الآخر من تاج كورنثي مثبت فوق نهاية قالب يشكل بحد ذاته تاجاً للدعامة العريضة L في زاوية رواق النارتكس. وربما يعد هذا التصميم بدايةً في نظر البعض، إلا أنه من التصميم النودجية التي توضح تقلبات العمارة المسيحية في سوريا. وينعطف قالب عقد هذا القوس الموجود في نهاية رواق النارتكس أفقياً ليتفادى التاج، ثم ينعطف للأسفل حتى مستوى أقواس النوافذ ليستدير بعدها من جديد بزاوية قائمة ويتابع مسيره فوق قوس النافذة الأولى، وهكذا دواليك من قوس إلى آخر على طول المبنى بأكمله. في الواقع، إنه لأمر شائع أن نجد في الكائس التي ترقى إلى القرن السادس الميلادي في الجبال الشمالية البعيدة في سوريا قوالب عريضة تزين النوافذ وتنتقل من نافذة إلى أخرى إما بشكلٍ منحني، أو بزوايتين قائمتين عند مستوى عتبة النوافذ؛ لكن الأمر المستغرب في هذا القالب أنه لا يؤطر جوانب النوافذ وإنما يقتصر على الربط بينها عند مستوى أقواسها، ناهيك أنه قالب منحوتٌ في منتهى الدقة والاتقان. وأخيراً يأتي كورنيش المجاز الجانبي وكورنيش المنور العلوي لإضافة اللبسات الأخيرة على زخرفة هذا الجدار الجانبي للكنيسة. ولم يبقَ لدينا هنا سوى الجانب الشمالي من البرج، فكان عبارة عن سطح جداري لا يحتوي على ما يثير الاهتمام فيه لأنه مصمت بدون فتحات باستثناء نافذته المستطيلة الصغيرة الواقعة بالقرب من قمته. لكنني أعتقد أن هذا الوصف لا ينطبق سوى على البرج الشمالي، وأن الجدار الجنوبي في البرج الجنوبي كان يحتوي على نافذة تشبه النافذة الموجودة في واجهته. وكما قلت أعلاه، من المحتمل أن يكون هذان البرجان أعلى مما هو موضح في الشكل الترميمي للكنيسة وقد تكون لهما طوابق أكثر. وبالانتقال أخيراً إلى النهاية الشرقية للكنيسة من الخارج فنبرز سماتها قوالب الأشرطة البارزة الممتدة بشكل أفقي، والركائز القصيرة المزدانة بالأخاديد والموجودة في الحيز الأسفل من هذا الجدار، بالإضافة إلى الركائز الصغيرة لنوافذ الحنية والتي تعمل على حمل قوالب النوافذ المعقودة هذه.

ونختتم حديثنا عن كنيسة بيزوس بوصف زخارفها من الداخل والتي كانت على القدر ذاته من التحفظ الذي لمسه في زخارفها من الخارج؛ إذ تعلو الدعامات الأربع التي تتخذ شكل الحرف T تيجاناً مرَّبةً كبيرةً، تتكون من قالب سفلي، وشريط من الحملات الزخرفية وتاج ذو أشرطة ضيقة ومستوية؛ ولا تختلف هذه التيجان عن تيجان الدعامات المتصلة بالجدار عند نهايات بائكتي الصحن إلا من خلال وجود قالب مجوف عوضاً عن شريط الحملات الزخرفية. وازدان الوجه الداخلي للدعامات T بالأخاديد، وتكررت هذه الأخاديد في الأعمدة المرتفعة فوقها ولكنها نحتت على أوجها الثلاثة، ومُلائت هذه الأخاديد بحلية على شكل الحبل. كما ازدانت واجهات الأقواس الكبيرة بمجموعة عريضة من القوالب المحززة قليلة العمق. وثمة قالب لإفريز بارز في غاية الأناقة والإبداع يمتد فوق الأقواس ويأتي تحت مستوى عتبات نوافذ المنور العلوي بمدماك واحد. هذا وإن دعامتي الحنية أطول بكثير من دعامتي أروقة الصحن المتصلتين بالجدار وعليهما تاجان كورنثيان منحوتان بدقة تامة. أما نوافذ الحنية فقد زُينت بقوالب مقنطرة محمولة على ركائز قصيرة محززة بالأخاديد ومثبتة على مدماك بارز ومزين بالقوالب. وقد بقي طنف وحيد من الأطناف التي كانت تحمل السطح الجملوني على الجانب الشمالي من المنور العلوي عند نهايته الغربية، ويتمتع هذا الطنف بالشكل التقليدي الذي تُعرف به مثل هذه المساند مع إضافة قوالب تزيينه من الأعلى والأسفل. وخلاصة القول: إن الزخارف الورقية المنحوتة في هذه الكنيسة تقتصر على التيجان الكورنثية القليلة الموصوفة أعلاه، وعلى الحملات الزخرفية وتاج البوابة الغربية والتيجان البيضوية الكبيرة فوق البوابات الجانبية الأربع. وتتميز البوابات الأخيرة هذه بجملها الأخاذ ودقة نحت تفاصيلها. وهناك رسم لإحداها في اللوحة رقم 68 من كتاب "سوريا الوسطى".

تاريخ الكنيسة وسماتها العامة

تختلف كنيسة بيزوس هذه أشد الاختلاف عن الكنائس الأخرى في جبل أريحا، الأمر الذي يجعل تحديد تاريخها أكثر صعوبة. فن منطلق بنيتها وزخارفها، نجد أن هناك الكثير من القواسم المشتركة بينها وبين الكنائس اللاحقة في جبل الأعلى وجبل باريشا وجبل حلقة وجبل سمعان، وتمتد جميع هذه الجبال على الأطراف الشمالية من جبل أريحا. وبعد دراسة الكنائس في جبل أريحا دراسة متمعنة، نجد أن أغلبها يرجع على الأرجح إلى عصور قديمة ترقى إلى القرن الرابع ومطلع القرن الخامس للميلاد، على الرغم من عدم العثور على نقوش واضحة تحدد تاريخ أية كنيسة

منها. وربما ترقى الكنيسة الكبيرة في حاس⁷⁵ إلى تاريخ لاحق مقارنة مع معظم الكنائس الأخرى في المنطقة؛ ولكن تبدو كنيسة بيزوس هذه متأخرة، بالمقارنة مع الكنائس الواقعة في الجوار ومع الكنائس في الجبال الشمالية الأبعد، وبكلمة "متأخرة" أعني الربع الأخير من القرن الخامس للميلاد. ورغم أنها تنفرد بتفاصيل وجدت فيها دون غيرها، إلا أن السمات التي تشترك فيها مع الكنائس الأخرى، وعلى وجه الخصوص التيجان الكورنثية لركائزها والنجفات البيضوية المنحوتة فوق بوابتها الجانبية، تشبه إلى حد بعيد السمات المشابهة في الكنيسة الغربية⁷⁶ في باقرا، والتي تحتوي أيضاً على ركائز محززة بالأخاديد وقوالب لأشرطة أفقية بارزة، وترقى بدورها إلى عام 501 م. ومع ذلك، لا بد من مقارنة زخرفة النجفات البيضوية مع تلك الموجودة في كنيسة خربة تيزين⁷⁷ والتي يرجع تاريخها إلى عام 585 للميلاد.

-
- 75 سوريا الوسطى، الرسوم التوضيحية ذات الأرقام 3 و65 و66، ومنشورات البعثة الأثرية الأمريكية إلى سوريا، الفصل الثاني، ص. 219.
- 76 منشورات البعثة الأثرية الأمريكية إلى سوريا، الفصل الثاني، ص. 190-193.
- 77 المرجع السابق نفسه، ص. 214.

كشاف المصطلحات والأسماء

- أعمدة. انظر عمود
- أفاميا 3، 9
- إفريز 89
- انظر أيضاً شريط: بارز
- أقبية. انظر قبو
- إقطاعيون 8
- أقواس. انظر قوس
- الدانا (الجنوبية) 4، 10-11، 13، 66-74
- ألواح
- ~ حجرية (بلاطات حجرية) 15-16، 31، 40
- 54-55، 65، 69، 83، 85
- ~ المتراس (الدرابزين) 37، 46، 71
- أم الجمال 7
- إم دي فوجيه 3-4، 10، 20، 29، 31، 33-34، 36، 48-49، 51، 54، 57، 63، 66، 77، 84
- سوريا الوسطى 29، 49، 77، 85، 89
- أنابيب رصاصية 34
- الأندرين 85
- أنطاكية 9، 16
- أواني مقدسة 23
- أيقونات 75
- بازليكا 21، 76
- باتكة 24، 27، 56، 84، 89
- بدن. انظر عمود: بدن
- برج (أبراج) 4، 46، 59، 62-63، 65-66، 83، 88، 86
- ~ مراقبة 66
- إيفانيا 6
- أجهزة تسخين 34
- أخدود 33، 56، 71
- أرضية 27، 33، 41، 56، 65، 69
- ~ خشبية 38
- ~ فسيفسائية. انظر فسيفساء
- أريحا 11، 13
- إسطبل 29، 36، 39-40، 44، 51
- أسطح جملونية. انظر جملون
- أسطح حجرية. انظر سطح: حجري
- أسطح خشبية. انظر سطح: خشبي
- أسقف حجرية. انظر سطح: حجري
- أسقف خشبية. انظر سطح: خشبي
- أسوار. انظر سور
- أسواق. انظر سوق
- أشرطة. انظر شريط
- أضرحه. انظر ضريح
- إطار (إطارات) 86
- ~ من القوالب. انظر قوالب الإطارات
- ~ معقود 52
- ~ النوافذ 29، 62
- أطناف. انظر طنف
- باب الهوى 24
- بابسقا 36
- باحة. انظر فناء
- ~ مسورة 51، 63
- البارة 4، 11، 40
- بارونات 8

- برينتس 19 بهو الدرج. انظر درج
بصرى 7 بوابات. انظر بوابة
بعثة بوابة (أبواب، باب، بوابات) 5، 8، 10، 20-21،
23، 29، 31، 33-34، 36، 43-44، 51، 53،
56، 59، 62، 64، 69، 74، 77-78، 83،
86، 89-90
بيت الدرج. انظر درج
بيزوس بن بارادوس 76-77
- تاج (تيجان) 7، 24، 37-38، 43، 49، 53، 56،
59، 62، 64، 68، 83، 86، 88-89
~ الأبواب 43-44
~ الأعمدة 24
~ ذات) الأتفاف المحلقة 49
~ بيضوي 89
~ توسكاني 37
~ الدعامات المتصلة بالجدار 89
~ دوري 27، 37
~ شبه منحرف 71
~ طبلية الـ 37، 41
~ كورنثي 67، 88-90
~ محزز 67
- جائز رئيس 53
جبل
~ أريحا 3-8، 10-11، 13-15، 19، 34، 67،
75، 77، 84، 86، 89
~ الأعلى 3، 89
~ البارة 3
~ باريشا 3، 6، 86، 89
~ حلقة 89
- ~ الزاوية 3
~ سمعان 6، 86، 89
جدار استنادي 59
جرادة 4
جرن للماء المقدس 27
جستتيان 35
جسر 4، 15-16، 18
جص (الطلاء الجصي) 5، 35

- جملون (سطح/أسطح جملونية، جملونات،
قوصرة) 24، 27، 34، 38، 69، 71، 74،
83-84، 88-89
- جناح مستعرض 21، 27، 55
جوقة الموسيقيين 33
جوليانوس ودومنا 8، 29
- حاس 10-11، 13، 89
خربة ~ 13-14، 63
حانة 74
حجارة (حجر) 13، 16، 19-21، 34، 54، 56، 65
~ أسطوانية 19
~ بازلتية سوداء 5
~ جبيرية (كلسية) 5، 31
~ القوس (الأقواس) 24، 83، 85-86
~ مشدبة 63، 75
- حجرة
~ الحاجب. انظر غرفة: الحاجب
~ الخلاء (مبولة، مرحاض) 33، 65-66
~ الدفن 67
~ حديقة 39، 74
~ مسورة 36، 76
~ حقبية (قتره)
~ إسلامية 13، 23-24
~ رومانية 5-6
~ مسيحية 5-6
~ حلية 43
~ بيضوية 67
- مقعر من الأعلى ومحدب من
الأسفل) 37، 41، 59، 68، 86
حمّال (حمّالات). انظر عنصر: حمّال
حمّالات زخرفية 86، 89
(ال) حمّام 6، 74
~ بإسقا 36
~ البارة 11
~ البارد "البراني" 33-34
~ البخار 31، 34
~ براد 36
~ الساخن 31
~ سرجيلا 4، 8-9، 19-20، 29، 31، 33-36
38، 49
~ الفاتر "الوسطاني" 31
~ الماء الحار "الجواني" 31، 34
~ مجليا 36
انظر أيضاً غرفة: المرجل، مغطس الماء الحار
حنية 21، 23-24، 31، 33-34، 55-56، 83-85،
88-89
~ عميقة ومخفية 77
حوران 6-7، 39، 51
حوض (أحواض) 39، 46، 65-66
حي (أحياء) 6، 11
~ تجاري 6، 11، 13
~ راقى 6
~ سكني 11

- خانات 5
 خصر العقد 84
 خدم 8، 40
 خلافة إسلامية 11
 خزان (خزانات) 20، 33-34، 39، 59، 69، 74
 خلكتيس 16، 16
 ~ أرضي 34-33
 خلوة 31، 34
 ~ علوي 34-33
 تخمارة 74
 خزانة 23
- درازين 21، 34-33، 46
 درج (بهو الدرج، بيت الدرج) 39، 43-44، 46،
 46، 51، 69
 دلوزة 4، 8، 13، 55
 دهلينز (دهالينز) 38، 41، 43-44، 46، 51-53، 56،
 77
 ~ المدخل 85
 ~ مقنطر 51-52، 56
 دير (أديرة) 4، 8-9، 13، 23، 63
 ~ ترمانين 74
 ~ راهبات 69، 74
 ~ رهبان 27
 ~ سمعان 74-75
 ~ سنبل 13
 فناء الـ ~ 21، 23، 27، 76
- رجل العقد 27، 53
 رصيف (أرصفة) 5، 77
 رعي 9
 رفات مقدس 27-28
 رقيق. انظر عبيد
 ركيزة (ركائز) 21، 77، 88، 90
 ~ محززة بالأخاديد 86، 88-90
 رواق (أروقة) 8، 13، 23، 27، 39-41، 43-44،
 46، 48-49، 51، 56، 59، 63، 69، 74-75،

- زخارف 5-6، 8، 11، 15، 24، 28-29، 34، 49،
 ~ 56، 59، 62، 64، 71، 86، 88-89
 ~ الأخاديد 67، 86، 88-90
 ~ الأقراص 5
 ~ الأكاليل من الزهور 59
 ~ أوراق الأفئدة 59، 64، 67-68، 86
 ~ أوراق النباتات المائية (أوراق اللوف) 59
- ساحة مكشوفة 75
 ساكف 37
 سخان الماء 34
 سرجيلا 4، 6، 8-10، 13، 19-56، 66
 سطح (سقف) 24، 27، 29، 33، 35، 48، 53،
 56، 64، 66، 71، 83-84
 ~ جملوني (أسطح جملونية). انظر جملون
 ~ حجري (أسطح/أسقف حجرية، سقف
 حجري) 31، 40، 54، 56، 63، 65،
 69، 83، 85
 ~ خشبي (أسطح/أسقف خشبية، سقف
- ~ بارز (طوق بارز، مدماك بارز) 34، 49، 53،
 56، 62، 67-68، 71، 86، 88-90
 ~ ضيق مسنن 68
 ~ عريض مسطح ونافر 43
 ~ مستقيم المقطع 59، 86
 ~ مسطح مشطوف الحافة 43
 شعير 11
- صحن 23-24، 27-28، 55-56، 74، 77-78، 85،
 89
 صهرج 46
 صلبان) 24، 59
 صهرج 46

- ضريح (أضرحة) 20، 28، 54
- ~ القديس سمعان 74
- الطبقة
- ~ الثرية 4
- ~ الفقيرة 4
- ~ المتوسطة (الوسطى) 8-9
- طبلية. انظر تاج: طبلية
- طراز (طرز) 7، 11، 24، 37، 41، 46، 48-49، 51-52، 57، 59، 62، 64، 74، 76
- ~ سوري 86
- ~ قوطي 86
- عبيد (رقيق) 8
- عتبة (عتبات) 59
- ~ النوافذ 34، 84، 88-89
- عرائش الكرمة 10-11، 20-21
- عرّة 6
- عصر النهضة في إيطاليا 63
- العصور
- ~ المسيحية 35، 75
- ~ الوسطى 5، 8، 13
- ~ اليونانية 35
- عقد نصف دائري (عقود نصف دائرية) 49، 64، 88
- عمارة (عمائر) 5-7، 11، 14، 37، 66، 85، 62، 71، 86
- ~ جنائزية 54
- ~ سكنية (مباني سكنية، منازل سكنية) 4، 8-6، 11-13، 20، 27، 36، 38-41، 48، 56، 62-63، 76
- ~ كنسية 20
- ~ مسيحية 37، 85، 88
- عمود (أعمدة) 5، 7-8، 10، 13، 19، 23-24، 29
- ~ القديس سمعان 74
- ~ كلاسيكي 86
- الطريق الإمبراطوري 16
- الطلاء الجصي. انظر الجص
- طنف (أطناف) 34، 43-44، 37، 89
- طواحين الهواء 66
- طوق 43
- ~ بارزه. انظر شريط بارز
- ~ زخرفي 43
- طين 20-21، 40
- 27-28، 33-34، 36-37، 40-41، 43-44
- 46، 49، 51، 55، 59، 62، 66، 77، 83-84، 89
- بدن الـ ~ 19، 41
- ~ توسكاني 41، 51
- ~ دوري 24
- ~ صخري من قطعة واحدة 10، 20-21، 41، 59، 71
- قاعدة الـ ~ 15، 19، 23-24، 37
- ~ كلاسيكي 62
- ~ كورنثي 34، 44، 49، 51، 59
- ~ متصل بالجدار 55، 85، 89
- نصف الـ ~ 24
- انظر أيضاً تاج
- عنصر
- ~ حمال 34، 36-37، 41، 43، 59، 67-68، 71، 83-84، 86، 89
- ~ محمول 37
- عوارض
- ~ خشبية 10، 40، 43
- ~ سقف الشرفات 83

غرفة

- ~ الحاجب (حجرة الحاجب) 46، 56، 77
 ~ الشماسة 21، 23-24، 55، 83، 85
 ~ طعام 27
- فتحات التهوية الشبيهة بمرامي السهام. انظر نوافذ: مرامي السهام
 فرسان روما 8
 فرن. انظر تنور
 فسحات 23
 فسيفساء (أرضية فسيفسائية، لوحة فسيفسائية) 27، 29، 33، 35، 57
- فناء (باحة) 7، 21، 23، 27-28، 36، 38-41، 43-44، 46، 48، 51، 53، 56-57، 59، 63، 74، 77، 85
 ~ الدبر. انظر دير: فناء
 فنادق. انظر نزل
 فيلا (فيلات) 6-9، 11، 13، 20، 33، 38-41، 44، 46، 55، 57، 59، 62-63، 75-76
- قاعة لاجتماع مجلس الرهبان 27
 قاعدة (قواعد) 15، 19، 67
 ~ أتيكية 37
 ~ الأعمدة. انظر عمود: قاعدة
 قالب (قوالب) 5، 7، 11، 19، 24، 28، 34-35، 37-38، 43، 53، 56، 62، 64، 67-68، 71
- قبة حجرية 13
 قبر (قبور) 20، 54
 ~ هرمي 69
 انظر أيضاً حجرة الدفن، ضريح، لحد معقود، مدفن، مقبرة، ناووس
 قبو (أقبية)
 ~ أسطواني 63
 ~ تحت الأرض 31، 63، 69
 ~ متقاطع 85
 قسطنطين 35
 قصر
 ~ ابن وردان 9، 85
 ~ النبات 4، 66، 69-75
 قلاع أوربية 8
 قلعة 11
 ~ سمعان 74
 ~ العذارى 69
 ~ المضيق 3
 قحح 11، 40
 قناة 33-34، 65، 67
- قاعة لاجتماع مجلس الرهبان 27
 قاعدة (قواعد) 15، 19، 67
 ~ أتيكية 37
 ~ الأعمدة. انظر عمود: قاعدة
 قالب (قوالب) 5، 7، 11، 19، 24، 28، 34-35، 37-38، 43، 53، 56، 62، 64، 67-68، 71
 ~ الإطارات (إطارات من القوالب) 49، 51-52، 64، 86
 ~ الشريط البارز. انظر شريط بارز
 ~ غائر (عميقة) 49، 56، 59، 64
 ~ القاعدة 67
 ~ (ذات مقاطع) كلاسيكي 49
 ~ مجوف 89
 ~ محزز 86، 89
 ~ مشطوف الحافة 43
 ~ معقود 49، 52، 86، 88
 ~ مقعر من الأعلى ومحدب من الأسفل. انظر حلية: مقعرة من الأعلى ومحدبة من الأسفل
 ~ مقنطر 89

- قوالب. انظر قالب
 قوس (أقواس) 5، 7، 15، 21، 23، 27، 33-34، 41، 44، 46، 49، 52-53، 56، 59، 63، 65، 69، 77، 83-84، 86، 88-89
- ~ طولبي 77، 85
 ~ عاتق 76
 ~ عرضي 39، 43، 44، 46، 77، 83-85
 ~ غرفة القداس 85
 ~ المذبح 21، 27، 85
 ~ منخفض 84
 ~ النارثكس 83، 86
 انظر أيضًا حجارة: القوس، خصر العقد، رجل العقد
 قوصرة. انظر جملون
- ~ دلوزة 55-56
 ~ الرويحة 4، 76، 84-85
 ~ سانتا براسيد 84
 ~ سرجيلا 20، 21-28، 43-44، 55-56
 ~ الطوبة 84
 ~ فافرتين 28
 ~ قصر ابن وردان 85
 كوات 23
 ~ الأيقونات 75
 ~ شبيهة بالمخاريب 43، 49
 ~ مستطيلة 49
 ~ معقودة بعقود نصف دائرية 49
 ~ هلالية 49
 كورنيش 34، 37، 46، 49، 59، 64، 67-68، 71، 84، 86
- ~ باقرحا 90
 ~ براد 77
 ~ ييزوس 76-90
 ~ جنازية 23، 27-28
 ~ حاس 89
 ~ خربة تيزين 90
- كاتدرائية (كاتدرائيات) 85
 ~ كراتين 77
 كتابة (كتابات). انظر نقش
 كلمة
 ~ بازلتية 4، 7، 84
 ~ سكنية 39-40، 43، 56
 ~ كلسية 3، 5
 كراتين 4، 77
 كرمة (كروم العنب) 10-11، 20-21
 كروم الزيتون 10-11، 13، 40، 66
 كفر البارة 11
 كفرنبيل 4، 13
 كفرومة 4، 15-19
 (ال) كنيسة (كائس) 4، 6، 8-9، 11، 13-14، 27-28، 34، 55، 74-77، 85-86، 88-90
- ~ تاجي 49، 64
 ~ المجاز الجانبي 86، 88
 ~ مسنن 67
 ~ المنور العلوي 88
 كوكبة 4، 13، 63-66

~ فسيفسائية (لوحات فسيفسائية). انظر فسيفساء

لحد معقود (لحد معقودة) 23، 28، 54، 63

لوحة 19، 35، 37

~ هرمي 4، 20، 54، 66-67

مباني

انظر أيضاً حجرة الدفن، ضريح، قبر، لحد معقود،

~ سكنية. انظر عمارة: سكنية

مقبرة، ناووس

~ عامة 6، 36

مدماك بارز. انظر شريط بارز

انظر أيضاً عمارة (عمائر)

مدنج 21، 23، 27، 85

مبولة. انظر حجرة الخلاء

مرافق عامة 8

متاجر (محال تجارية) 6، 10، 49، 75

مرجل. انظر غرفة: المرجل

انظر أيضاً مركز تجاري

مرحاض (مراحيض). انظر حجرة الخلاء

المتحف العثماني الإمبراطوري 35

مركز تجاري (حي تجاري) 11، 13

متراس (متاريس) 16، 37، 69، 71

مزراب 65-66

مجاز 15-16، 21، 23-24، 27، 77، 83-84، 88

مزرعة (مزارع) 8-10

مجلياً 13، 36

مسجد 13

مجمع

مصاطب 20

~ سكني 9، 39، 56

~ متدرجة 21

~ مقدس 28

~ مصطنعة 20

محال تجارية. انظر متاجر

مصلى 74-75

محراب (محراب) 23-24، 43، 49

مصنع زيوت 10

مخطط تنظيمي للمدينة 56

مضخة 33

مداخل برجية 46

مظلة حجرية 43، 66

مدفن (مدافن) 4، 6، 8، 11، 13-15، 19-20، 27،

معاصر 10، 39

54، 63، 66-68، 76، 85

~ الزيتون 9

~ الدانا 4

~ النبيذ 9

~ أولمبيان 66

معالف 29، 36

~ بيزوس المقرب 76-77

معبد (معابد) 13-14، 62، 76-77، 86

~ تذكاري عمودي 4

معرأة 5-6، 11، 68

~ الغدفة 68

معرة النعمان 4-6

~ المعبد 76-77

معرة بيطار 14

~ معرأة 68

معمودية 13، 27

~ معرة بيطار 14

مغس الماء الحار 31

~ مكعب 54

- مقعد 53
مقبرة (مقابر) 4-5، 19-20، 54
انظر أيضاً حجرة الدفن، ضريح، قبر، لحد معقود،
مدفن، ناووس
مقصورات 31
- مقهي 36-38، 46، 49
منصة (منصات) 19-21، 33-34، 67، 77
منور علوي 24، 33، 83-84، 88-89
مثانة 5
- نارثكس. انظر رواق: النارثكس
نافذة. انظر نوافذ
ناووس (ناووس) 20، 23، 28، 54
نيذ 9-10
نخفة (نخفات) 24، 27-28، 31، 34، 37، 62، 71،
83
~ بيضوية 90
~ معقودة 23-24، 27-28، 55
نزل (فنادق) 38، 74-75
نصب تذكاري 15، 19
~ ذو عمودين 19
~ في بنابل 19
~ في تدمر 19
~ في سرمدنا 19
~ في كفرومة 19
نصف قبة
~ الحنية 31، 33، 85
~ محارية 49
- نقش (نقوش، كتابة، كتابات) 5، 9-11، 14، 19،
24، 28-29، 31، 43، 49، 62، 64، 71،
74، 76، 89
نهر العاصي (وادي العاصي) 3، 11
نهر الفرات 16
نوافذ (نافذة)
~ ثلاث 83، 86، 88
~ صليبية 74
~ مراحي السهام (فتحات التهوية الشبيهة بمراحي
السهام) 39، 49، 65
~ معقودة 64، 88
~ المنور العلوي 24، 33، 89
ناووس. انظر ناووس
هرم 54، 67
هيكل 21، 27، 54، 59، 66-67، 75، 77
~ الكهنة 74
- واحية
~ الحمام 29، 33
~ الفيلا 62
~ الكنيسة 78، 83، 86، 88-89
~ المدفن 54، 67
~ المقهي 36، 38
~ المنزل 8، 41، 43، 49، 51، 57، 59، 62-64
- وادي العاصي. انظر نهر العاصي
ورش
~ تنظيف النسيج 10
~ الحدادة 10
~ الحياكة 10
وسادة. انظر تاج: وسادة

جبل أريحا - جزءٌ جديدٌ من العمارة القديمة في سوريا تأليف باتلر وترجمة عائشة موسى - يقدم دراسةً عن ستةٍ من أبرز المواقع الأثرية التي تتناثر في جميع أصقاع هذا الجبل وترصع كل شبرٍ من أراضيه.

وتحتل سرجيلا موقع الصدارة لما تحظى به من نسيجٍ عمراني يمزج بين البيوت والكائس والحمامات والمدافن، لكن لفيلاها قصة أخرى تروي حياة سكان البلدات في سوريا الرومانية البيزنطية، والثراء الذي حققوه، والنشاطات الاقتصادية والاجتماعية والعمرائية والدينية التي مارسوها؛ قصة تلخص أجداد الماضي، وتوثق تاريخ سوريا العريق، وتزيح الستار عن حضارات تمت وازدهرت في ظلّ رقيّ عمراني غير مسبوق، تعاقبت فيها ممالك وإمبراطوريات تركت لقادم الأيام كنوزاً أثريةً كانت مفتاحاً للتقدم العمراني في العالم بأسره.

عائشة موسى، ماجستير في الترجمة (2009)، جامعة حلب، هي محاضرة في قسم اللغة الإنكليزية في جامعة حلب، ولديها خبرة في التدريب على الترجمة عبر الإنترنت، وقامت بترجمة كتب عن الآثار في سوريا: جنوب حوران، وجبل سمعان، والعلا وقصر ابن وردان، والأندرين - كراتين - معرانة.

The Ancient Architecture in Syria (Djebel Rīḥā), authored by Butler and translated by Aisha Moussa, studies six of the most prominent archeological sites on Rīḥā mountain.

At the forefront comes Serjilla which features a variety of grand architectural structures, including houses, churches, baths, and tombs. Its villas tell a narrative about the lives of townspeople in Roman-Byzantine Syria, illustrating their wealth and the diverse economic, social, architectural, and religious activities they engaged in. This narrative not only recounts the glories of the past but also documents Syria's ancient history and reveals the civilizations that thrived with unprecedented architectural advancements. Here, various kingdoms and empires have succeeded one another, leaving behind archeological treasures that have significantly influenced architectural practices worldwide.

Aisha Moussa, M.A. in translation (2009), Aleppo University, is a lecturer at the English Department, an instructor of online translation courses, and the translator of *Southern Hauran, Djebel Sim'ān, Alā and Ḳaṣr Ibn Wardān*, and *Il-Anderīn - Kerrātīn - Ma'rātā*.

ISBN 978-9004-72984-1



brill.com

9 789004 729841